على الحجارة وغشّوه بالجريد وسعفه . وقيل العرش البنيان قال الشّاعر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم   بعتيبة بن الحارث بن شهاب[١]

ويقول الطّبرىّ[٢] : « وأمّا العروش فإنّها الأبنية والبيوت واحدها عرش وجمع قليله أعرش وكلّ بناءٍ فإنّه عرش ويقال : عَرَش فلان يَعْرِش ويَعْرُش وعرّش تعريشًا ومنه قول الله تعالى ذكره : وما كانوا يَعْرِشون ، يعنى يبنون ومنه قيل : عريش مكّة يعنى به خيامها وأبنيتها » ويقول ابن كثير[٣] : « أى ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها » .

قال أنّى يحيى هذه الله : أنّى تكون بمعنى أين ومتى وكيف[٤] والمعنى مِنْ أىّ طريق وبأىّ سبب[٥] وكيف يحيى هذه الله بعد موتها ، استعظامًا لقدرة الله تعالى[٦] المحيى واعترافًا بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء[٧] ويقول أبو حيّان[٨] : « والإحياء والإماتة هنا مجازان ، عبّر بالإحياء عن العمارة وبالموت عن الخراب . وقيل حقيقتان فيكون ثمّ مضافٌ محذوفٌ تقديره : أنّى يحيى أهل هذه القرية أو يكون هذه إشارةً إلى مادلّ عليه المعنى من عظام أهلها البالية وجثثهم المتمزّقة وأوصالهم المتفرّقة » .

فأماته الله : ظاهر هذه الإماتة أنّها بإخراج الرّوح من الجسد[٩] .

مائة عام : يقول القرطبىّ[١٠] : « وقال النّقّاش : العام مصدر كالعوم ، سمّى به هذا القدر من الزّمان لأنّها عومةٌ من الشمس فى الفَلَك . والعَوْم كالسَّبح . وقال الله تعالى : كلٌّ فى فلكٍ يسبحون . قال ابن عطيّة هذا بمعنى قول النّقّاش ، والعام على هذا كالقول والقال » ويقول الرّاغب[١١] : « والعَوم السّباحة . وقيل : سُمِىّ السَّنَةُ عامًا لعَوْم الشّمس فى جميع بروجها ، ويدلّ على معنى العوم قولُه : وكلٌّ فى فلكٍ يسبحون » .

ثمّ بعثه : معناه أحياه[١٢] وأصل البعث إثارة الشّىء وتوجيهُه. يقال: بعثتُه فانبعث.

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٨٥
(٢) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢١ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٤
(٤) القاموس .
(٥) تفسير القرطبىّ ١٠٩٨
(٦) الجلالين .
(٧) انظر الكشّاف ١ / ٢٩٥
(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٩١ .
(٩) تفسير القرطبىّ ١٠٩٩ .
(١٠) تفسير القرطبىّ ١٠٩٩ وانظر البحر المحيط ٢ / ٢٨٥ .
(١١) المفردات ص ٣٥٤
(١٢) تفسير القرطبىّ ١٠٩٩ .

ويختلف البعث بِحَسَب اختلافِ ما عُلّق به ، وهو هنا بمعنى إحياء الميّتّ[١] ويقول أبو حيّان[٢] : « وقد منعه الله من السبّاع والطّير ومنع العيون أن تراه » وجا فى تفسير الطّبرىّ[٣] « فأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد » .

قال كم لبثت : اللّبث المكث والإقامة[٤] قال الله له أى بواسطة الملك[٥] على جهة التّقرير[٦] .

قال لبثت يومًا أو بعض يوم : إنّما قال ذلك لأنّ الله تعالى ذكره كان قبض روحه أوّل النّهار ثمّ ردّ إليه روحه آخر النّهار بعد المائة العام[٧] .

قال بل لبثت مائة عام : بل لعطف هذه الجملة على الجملة المحذوفة . التّقدير : قال ما لبثت هذه المدّة بل لبثت مائة عام[٨] ورأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها ما دلّه على ذلك[٩] .

فانظر إلى طعامك : التّين والعنب[١٠] .

وشرابك : العصير[١١] أو اللّبن[١٢] أو الماء[١٣] .

لم يتسنّه : قراءة الجمهور بإثبات الهاء فى الوصل والوقف[١٤] فعلى قراءة الجمهور الهاء أصليّة . وحذفت الضمّة للجزم . ويكون يتسنّه من السَّنة أى لم تغيّره السِّنون . قال الجوهرىّ : ويقال سُنون والسّنة واحدة السّنين ، وفى نقصانها قولان : أحدهما الواو والآخر الهاء . وأصلها سنهة مثل الجبهة ، لأنّه من سَنَهتِ النّخلة وتسنّهت إذا أتت عليها السّنون . ونخلةٌ سنّاء ، أى تحمل سنة ولا تحمل أخرى . وسنهاء أيضًا . قال بعض

---

(١) انظر مفردات الرّاغب ص ٥٢
(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٩١ .
(٣) ٣ / ٢٣
(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٨٥ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢ / ٣١٤
(٦) تفسير القرطبىّ ١١٠٠ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٥ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٣١٤ والبحر المحيط ٢ / ٢٩٢ والكشّاف ١ / ٢٩٥ وتفسير القرطبىّ ١١٠٠ .
(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٩٢ .
(٩) تفسير القرطبىّ ١١٠٠ وتفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٥ .
(١٠) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٤ .
(١١) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٤ والكشّاف ١ / ٢٩٥ وتفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٥ .
(١٢) الكشّاف ١ / ٢٩٥
(١٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٥ .
(١٤) انظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٥ وتفسير القرطبىّ ١١٠٠ .

الأنصار[١] .

فلـــيست بسنهاءٍ ولا رُجَبيّـــــةٍ ولكـن عرايـا فى السّنين الجوائـــح[٢]

وأسنهت عند بنى فلان ، أقمت عندهم ، وتسنّيت أيضًا . واستأجرته مساناةً ومسانهةً أيضًا . وفى التّصغير سُنيّة وسُنيهة[٣] قال مجاهد : لم يتسنّه لم ينتن . قال النّحّاس : أصحّ ما قيل فيه إنّه من السّنة أى لم تغيّره السّنون[٤] ويقول الطبرىّ[٥] : « ومعنى قوله لم يتسنّه لم يأت عليه السّنون فيتغيّر على لغة من قال : أسنهت عندكم أسنه إذا أقام سنة »

وقالوا سانهت وأسنهت عند بنى فلانٍ وهى لغة الحجاز ، وقال الشّاعر :

ولـــيست بسنهاء ولا رُجَّبيّـــــةٍ ولكن عرايـا فى السّنيـنَ الجوائـحِ[٦]

فجعل الهاء فى السّنة أصلاً وهى اللّغة الفُصحى[٧] .

وانظر إلى حمارك : كيف تفرّقت عظامه ونخرت وكان له حمارٌ قد ربطه[٨] .

وانظر إلى العظام كيف ننشزها : قال الكوفيّون وابن عامر بالـزّاى والباقـون بالرّاء[٩] أمّا قراءة نُنْشِزها بالزّاى فمعناه نرفعها[١٠] ونحرّكها ونرفع بعضها إلى بعضٍ للتّركيب[١١] والنَّشَز المرتفع من الأرض . قال مكّىّ : المعنى انظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض فى التّركيب للإحياء ، لأنّ النّشز الارتفاع ومنه المرأة النّشوز ، وهى المرتفعة عن موافقة زوجها ، ومنه قوله تعالى : وإذا قيل انشزوا فانشزوا ، أى ارتفعوا

---

(١) سويد بن الصّامت .

(٢) نخلةٌ رُجَبيّة كعمرية وتشدّد الجيم ، وكلاهما نسبٌ نادر ، وترجيبها أن تضمّ أعذاقها (عراجينها) إلى سعفاتها ثمّ تشدّ بالخوص لئلاّ ينفضها الرّيح . وقيل : هو أن يوضع الشّوك حوالى الأعذاق لئلاّ يصل إليها آكل فلا تسرق ، وذلك إذا كانت غريبةً طريفةً . العرايا واحدتها عريّة ، النّخلة يعريها صاحبها رجلاً محتاجًا . والجوائح السّنون الّتى تجيح المال .

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٠١ وانظر البحر المحيط ٢ / ٢٨٥ وتفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٥ .

(٤) تفسير القرطبىّ ١١٠٢

(٥) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٥ .

(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٨٥

(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٦ .

(٨) الكشّاف ١ / ٢٩٥

(٩) تفسير القرطبىّ ١١٠٣ .

(١٠) تفسير القرطبىّ ١١٠٣

(١١) الكشّاف ١ / ٢٩٥ .

وانضمّوا(١) ومعنى أنشز الشّيء جعله ناشزًا أى مرتفعًا(٢) ويقول ابن كثير(٣) : « أى نرفعها فيركب بعضها على بعض » .

ثمّ نكسوها لحمًا : ثمّ نكسو العظام لحمًا ، أى نلبسها ونواريها به كما يوارى جسد الإنسان كسوته الّتى يلبسها . وكذلك تفعل العرب تجعل كلّ شيء غطّى شيئًا وواراه لباسًا له وكسوة ، ومنه قول النّابغة الجعدىّ :

فالحمـــد لله إذ لم يأتنـــــى أجلى   حتّى اكتسيت من الإسلام سربالاً(٤)

ويقول أبو حيّان(٥) : « الكسوة حقيقةً هى ما وارى الجسد من الثّياب ، واستعارها هنا لما أنشأ من اللّحم الّذى غطّى العظم كقوله : فكسونا العظام لحمًا ، وهى استعارةٌ فى غاية الحسن إذ هى استعارة عينٍ لعين » .

تحدّثت آية الكرسىّ عن التّوحيد الخالص ، وتحدّثت الآية الكريمة بعدها عن مقوّمات التّوحيد الخالص وهى الإيمان بالله والكفر بالطّاغوت وبكلّ ما يعبد من دون الله تعالى ، وبيّنت الآية الكريمة بعد ذلك أنّ الله ولىّ الّذين آمنوا وأنّ الّذين كفروا أولياؤهـم الطّاغوت ، ثمّ تحدّثت الآية الكريمة التّالية عن قمّةٍ من قمم الإيمان والرّشد ألا وهو إبراهيم عليه السّلام وعن صاعقةٍ من صواعق الكفر والغىّ ، ألا وهو النُّمْروذ الطّاغية ملك بابل . وكان محور الحديث فى الآية الكريمة إحياء الله تعالى الخلائق وإماتتها ، وقد حاول الطّاغية أن يوهم إبراهيم عليه السّلام بأنّه هو الآخر يحيى ويميت صرفًا للكلام عن حقيقته إلى مجازه . وإنّ محور الحديث فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها الإحياء والإماتة كذلك ، قال تعالى : ﴿ أو كالّذى مرّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عروشها قال أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ .

وهذا الّذى مرّ على قرية ، وهو عزيرٌ فيما يقال ، نستطيع أن ننظر إليه من زاوية ذكره

---

(١) تفسير القرطبىّ ٣ / ١١٠٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣٠ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٨٦   (٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٤ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣١ وقد نسب القرطبىّ البيت إلى لبيد ولعلّ هذا هو الصّحيح .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٩٤ .

بعد الحديث عن نمروذ الطّاغية ومن زاوية ما يصحّ أن يفهم من القول : ﴿ أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ من استبعادٍ لعمليّة الإحياء بعد موتها وبالتّالى يصحّ أن يقال إنّ هذا المارّ كان وقت قوله : ﴿ أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ كان واحدًا من الشّاكين فى البعث المستبعدين المنكرين له .

ويصحّ وراء ذلك — وهذا فى نظرنا هو الأرجح — أن ننظر إلى هذا المارّ على القرية من زاوية كونه توطئةً للحديث فى الآية الكريمة التّالية عن إبراهيم عليه السّلام الّذى سأل ربّه جلّ وعلا الّذى يحيى ويميت أن يريه كيف يحيى الموتى وقد عرفنا أنّ إبراهيم عليه السّلام هو الآخر طرفٌ آخر فى القضيّة الّتى كان النّمروذ طرفًا أوّل فيها ، وعليه يكون الحديث عن المارّ على القرية قد حُفَّ من بين يديه ومن خلفه بالحديث عن إبراهيم عليه السّلام الّذى آتاه الله سبحانه وتعالى رشده من قبل ، والمعروف أنّ النّصّ على الرّشد قد جاء فى الآية الكريمة التّالية لآية الكرسىّ الكريمة وذلك فى القول : ﴿ لا إكراه فى الدّين قد تبيّن الرّشد من الغىّ ﴾ وقد جاء عن إبراهيم عليه السّلام فى سورة الأنبياء[1] قوله عزّ من قائل ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَه مِنْ قَبْلُ وكُنّا به عالمين ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على سابقتها بحرف العطف أو : « أو كالّذى مرّ على قرية » والمعنى التّعجيب من حال الّذى حاجّ إبراهيم فى ربّه ومن حال الّذى مرّ على قرية . ويصحّ أن يكون معنى صدر الآيتين الكريمتين على النّحو التّالى : أرأيت يا محمّد إلى الّذى حاجّ إبراهيم فى ربه أو أرأيت مثل الّذى مرّ على قرية . إنّ كلاً من الحالين يستحقّ أن يتعجّب منه وإنّ أو الّتى تفيد التّفصيل تعطى المتأمّل الحقّ فى أن يعجب لكلٍّ من الحالين فإنّ كلاً منهما عجب .

وعزيرٌ هذا الّذى مرّ على قرية بيت المقدس فيما يقال بعد أن خرّبها بختنصّر البابلىّ وقتّل أهلها وكان راكبًا حماره ويحمل معه سلّةً من تينٍ وأخرى من عنبٍ وزِقًّا من عصيرٍ فيما يقال[2] قد راعه خراب المدينة ، وموت أهلها ، وتهدّم مبانيها ، للدّرجة الّتى سقطت معها سُقُفُها ، وسقطت بعد ذلك ولتطاول الأيّام والسّنين جدرها على عروشها وفى

---

(١) الآية ٥١

(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٥ .

عَرَصاتها . وإلى تلك الحال الّتى آلت إليها القرية أشار قوله تعالى : ﴿ أو كالّذى مرّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عروشها ﴾ والخواء الخلوّ . وهذه القريةُ كانت خاليةً من سكّانها الّذين ضمّتهم أرض القرية إلى صدرها وغدت عظامهم رميمًا . وقد انضمّ إلى الخراب الّذى حلّ بالقرية بفعل بختنصّر البابلىّ المجوسىّ الخراب الّذى حلّ بالقرية لفناء أهلها فلا يد تصلح ولا ساعد يبنى . وهكذا بدت القرية خاويةً أى خاليةً من سكّانها ، وهذا الجزء من المعنى تفيده لفظة « خاوية » وبسبب عدم وجود الأحياء الّذين يصلحون ما فسد ، ويشيدون الجديد ، وبسبب استمرار عوامل التّعرية فى عملها من طمس المعالم وزيادة الفساد وتوسيع دائرة الخراب ، انتهى الأمر بمبانى القرية بعد خوائها من سكّانها وخلائها من أهلها إلى سقوط سُقُفِها وإلى سقوط جدرها بعد ذلك على عروشها وسُقُفها ، وهذا الجزء الآخر من المعنى استفادته لفظة خاوية وتضمّنته بسبب حرف الجرّ على ومجىء لفظ العروش وكأنّ أصل المعنى بجزئيه على النّحو التّالى : أو كالّذى مرّ على قريةٍ وهى خاويةٌ من أهلها ساقطةٌ على سقوفها وعروشها . والله تعالى أعلم .

وفى ضوء أصل المعنى الّذى إليه أو مأنا نستطيع أن ننظر إلى ما جرى على لسان المارّ على القرية . قال عزّ من قائل : ﴿ قال أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ ومن البديهىّ أنّ الّذى يشغل بال المارّ على القرية والّذى استعظمه يتجاوز عمارة القرية وهذه هى حياتها بعد موتها إلى حياة أهلها وإعادة الحياة إلى سكّانها وقد طال العهد بموتهم وغدوا رميما . فليس المراد بالموت والحياة موت القرية بالخراب وحياتها بالعمران ، إنّما المراد بالموت موت أهلها وبالحياة إعادة الحياة إليهم وقد غدت عظامهم نخرة ، وعليه يكون معنى القول : ﴿ أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ كيف يحيى الله تعالى أهل هذه القرية بعد أن ماتوا وغدوا كأمس الدّابر . وإنّ الباعث له على استعظام هذا العمل واستعمال أنّى الّتى يشتمّ منها رائحة الاستبعاد ، أو هي قوّة لاستعظام عودة الحياة إلى الأموات استعظامه لقدرة الله تعالى المطلقة ، ومع ذلك فإنّه فى قرارة نفسه يعتقد أنّ إعادة الحياة إلى أموات تلك القرية أمرٌ يستحقّ لضخامته أن يستحوذ على كلّ فكر .

وانظر إلى براعة نظم هذه اللّغة الشّاعرة القادرة . إنّ المفعول به اسم الإشارة « هذه »

العائد إلى القرية هو الّذى يتقدّم دليلاً على استحواذ إحياء هذه القرية على أفكار المارّ ومشاعره . بينما يتأخّر الفاعل ، وقد سوّغ هذا التّأخيرَ فى الموضع أمنُ اللّبس فلفظ الجلالة « الله » مرفوع بالضّمّة . وانظر إلى فكرة الحياة والموت الّتى تملأ نفس المارّ على القرية . ومن البيّن أنّنا بصدد حياة بعد موت ، بينما فى الآية الكريمة السّابقة حياةٌ وموت . وكأنّ الآية الكريمة الأولى الّتى فيها ذكر الحياة والموت تُسْلِمُنا إلى الحياة بعد الموت أو البعث من أجل الحساب فالجزاء الثّواب والعقاب . ويبدو بساطة تفكير هذا المارّ على القرية من اقتصار حديثه على الحياة بعد الموت . إنّ مجرّد الحياة بعد الموت يريد أن يفهمه أو أن يتصوّره بعد أن آمن به فيما نعتقد . ويبدو بساطة تفكير هذا المارّ على القرية من المقارنة بين ما جرى على لسانه من اكتفاءٍ بذكر الحياة بعد الموت وبين ما جاء فى الجزئيّة الكريمة التّالية من تعبيرٍ عن الحياة بعد الموت بالبعث . قال تعالى : ﴿ فأماته الله مائة عامٍ ثم بعثه ﴾ .

إنّ المعنى الأوّليّ لكلٍّ من التّعبيرين واحد ﴿ أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ ﴿ فأماته الله مائة عامٍ ثمّ بعثه ﴾ إذ المعنى فى التّعبير الثّانى : فأماته الله مائة عامٍ ثمّ أحياه ، وبتأمّل كلٍّ من التّعبيرين وراء ذلك يتبيّن البون الشّاسع بينهما ، إذ أنّ جملة يحيى الّتى جاءت على لسان المارّ يصحّ أن تقف فى ضوء نظره المحدود عند مجرّد الإحياء ، وكأنّ لسان حاله يقول : بعد أن يتصوّر ذهنى الإحياء بعد الموت يفكّر فيما وراء ذلك . أمّا جملة « بعثه » فى الجزئيّة التّالية فإنّها تؤدّى معنى جملة أحياه الّتى لم تأت فى الجزئيّة الكريمة وتتجاوزه إلى تقرير حقيقة البعث بعد الموت وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أنّما خلقناكم عَبَثًا وأنّكم إلينا لا تُرْجَعونَ ﴾ وبهذا تجيب جملة بعثه المارّ على سؤاله وتقرّر حقيقة البعث بعد الموت ، والمعروف أنّ تقرير هذه الحقيقة من المسائل الّتى عُنِى بها القرآن الكريم عنايةٍ بالغة بحيث إنّا نستطيع أن نقول إنّ قضيّة البعث بعد الموت تعتبر المحور الّذى تدور حوله مجموعةٌ من سور القرآن الكريم ، والقضيّة الّتى تقرّرها مجموعةٌ من السّور الكريمة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

---

(١) سورة المؤمنون ١١٥ .

إنّ ربّ العزّة أراد أن يجعل من هذا المارّ على القرية السّائل : « أنّى يحيى هذه الله بعد موتها » المستعظم عودة الحياة إلى أهل المدينة بعد أن غدت عظامهم رميما ، أراد جلّ وعلا أن يجعل من هذا المارّ آيةً من آياته جلّ وعلا الدّالّة على قدرته المطلقة وعلى إعادة الحياة إلى الأموات وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ يوم نَطْوِى السّماء كطىّ السّجل للكتب كما بدأنا أوّل خلقٍ نعيده وَعْدًا علينا إنّا كنّا فاعلين ﴾ .

وإنّ مجىء حرف الفاء الدّال على التّرتيب مع التّعقيب : ﴿ فأماته الله مائة عام ﴾ دليلٌ على أنّ الإماتة وقعت بعد السّؤال من المارّ وبسببه . وقد شاءت إرادة الله تعالى أن تكون مدّة موت المارّ على القرية مائة عامٍ بينما هى فى حقّ أهل الكهف ثلاثمائة سنة شمسيّة أو ثلاثمائة وتسع سنواتٍ قمريّة لأنّ المائة العام كفيلةٌ بموت كلّ من كان آنذاك حيًّا من أتراب المارّ على القرية الّذى نستطيع أن نفهم أنّه كان رجلاً كامل الرّجولة ، فإذا استيقظ المارّ بعد موته مائة عام وأبصر النّاس لم يتبيّن وجهًا واحدًا يعرفه علمًا بأنّ المائة العام وإن بقى معها أحدٌ من أتراب المارّ على قيد الحياة كفيلةٌ بجعل الحىّ فى حكم الخلق الآخر الّذى لا يكاد يعلم من بعد علمٍ شيئًا بينما المارّ على حالته الّتى قبض الله تعالى فيها روحه من مائة عام . ووراء ذلك فإنّ المائة العام كفيلةٌ بأن يموت فيها حماره الّذى كان قد ربطه فيما يقال قبل قبض روحه ، وبأن يتحلّل جسد الحمار فيها ، وتبلى عظامه وتتناثر أشلاءً وتغدو رميما . والمعروف أنّ الدّليل الكبير للمارّ على القرية على أنّه هو نفسه قد مات مائة عام هو ذلك الحمار الّذى تفتّتت عظامه وغدت رميما .

ويتمشّى حرف العطف « ثمّ » الدّالّ على التّرتيب والتّراخى مع طول الفترة الّتى فصلت بين موت المارّ على القرية وبعثه .

وعلى لسان المَلَك وبإذنٍ من الله تعالى طُرِح على المارّ السّؤال كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿قال كم لبثت﴾؟ والمعنى كم من الزّمن مكثت وبقيت منذ أن جاء على لسانك القول: ﴿أنّى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ وأمسك الله نفسك إلى أن أرسلها الله تعالى مرّةً أخرى وقد قال عزّ من قائل(٢): ﴿الله يتوفّى الأنْفُسَ حين موتها والّتى لم تمت فى منامها فيُمْسِك

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ (٢) سورة الزّمر ٤٢ .

الّتى قضى عليها الموت ويُرْسِلُ الأخرى إلى أجلٍ مسمّى . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ .

وإذا كان النّوم أخا الموت وكان النّائم لا يكاد يشعر بمرور الوقت فكيف بمن أماته الله تعالى فعلاً ، وإذا كان المارّ على القرية قد قبض الله تعالى روحه أوّل النّهار ، وأرسل الله تعالى روحه آخر النّهار بعد مائة عامٍ وذلك معناه أنّ الشّمس كانت مشرقةً ساعة قُبض وساعة أُحْيِى فمن الطّبيعىّ أن يظنّ ، وقد فوجىء بالسّؤال ، أنّه لبث يومًا كاملاً دارت فى أثنائه الأرض دورةً كاملةً حول نفسها ، فجاء على لسانه القول : ﴿ قال لبثت يومًا ﴾ ولكنّه ما لبث أن تذكّر أنّ آخر عهدٍ له بالشّمس وقد طلعت فى المشرق أوّل النّهار ، وها هى ذى الشّمس ذاتها ولكنّها فى المغرب آخر النّهار ، فلبثه إذن ليس يومًا كاملاً كما ظنّ للوهلة الأولى بل هو بعض يوم ، أى بعض نهار ، ولذلك جاء على لسانه القول : ﴿ أو بعض يوم ﴾ .

ولماذا لا يظنّ المارّ أنّ لبثه على تلك الحال كان بعض يومٍ وإنّ الشّمس قد تحرّكت من المشرق إلى المغرب ولا زالت مشرقة ، هذا إلى أنّ الحالة الّتى هو عليها بعد أن أفاق تقول بذلك بل تؤكّده .

ومن الطّبيعىّ ما دامت الشّمس مشرقةً أن تكون أوّل ما تقع عليها عيناه بعد أن أفاق ، ومن الطّبيعىّ أن تكون الحال الّتى هو عليها من راحةٍ وصحّة الدّليل الذّاتىّ المقوّى للاستنتاج الّذى انتهى إليه من تأمّله للشّمس المشرقة . ونستطيع أن نفهم أن مفاجأة الملك للمارّ على القرية بالسّؤال قد شغله عن أن ينظر إلى طعامه وشرابه فضلاً عن أن ينظر إلى حماره أو إلى الجهة الّتى كان فيها والشّىء الّذى ربطه إليه .

والحقيقة أنّه بالنّظر إلى الجزئيّات الكريمات من القول الّذى تلا تقرير واقع لبثه مائة عام يتبيّن التّرتيب العجيب لهذه لجزئيّات بحيث إنّ الجزئيّة اللاّحقة تضيف دائمًا الجديد الّذى لم ترق إليه الجزئيّة السّابقة ، هذا إلى أنّه لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يتغيّر ترتيب تلك الجزئيّات أو العناصر . قال عزّ من قائل : ﴿ قال بل لبثت مائة عامٍ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آيةً للنّاس وانظر إلى العظام كيف ننشزها

ثمّ نكسوها لحمًا ﴾ وتفسير ذلك بإيجاز أنّه بعد تقرير حقيقة اللّبث مائة عام كان ثمّة التّنبيه إلى شيئين خارجيّين يتدرّجان فى قوّة الدّلالة ولكنّهما لا يقومان بالأدوار الّتى قامت بها الأجزاء الأخرى . إنّ ثمّة استئناسًا بالطّعام والشّراب اللّذين لم تغيّرهما السّنون . ومعروفٌ أنّ الطّعام والشّراب ألصق بالشّخص من ركوبه وأقرب ، لذا تقدّم الحديث عن الطّعام والشّراب . ثمّ إنّ الطّعام والشّراب من حيث الحال الّتى هما فيها ، إذا نحن تجاوزنا المائة العام ، أقرب إلى كونهما مظهرين طبيعيّين فى نظر شخصٍ ظنّ للوهلة الأولى أنّه لبث من وقت طلوع الشّمس إلى وقت الغروب . فالطّعام والشّراب من زاوية المائة العام دليلان قويّان على القدرة المطلقة للذّات العليّة ، ولكنّ الرّجل يظنّ أنّه لبث يومًا أو بعض يوم ، فالطّعام والشّراب بحاجةٍ إلى الدّليل على أنّهما بعد مائة عامٍ على حالهما ، وكان هذا الدّليل فى التّحوّل إلى الحمار الّذى غدت عظامه بيضاءَ رميما . ومن البيّن أنّنا بشأن الطّعام والشّراب من ناحية والحمار من ناحيةٍ أخرى أمام دليلين متقابلين دليلاً على القدرة المطلقة للذّات العليّة ، فبشأن الطّعام والشّراب هما على حالهما الّذى يعهده المارّ ، وليس كذلك الحمار .

ووراء ذلك لا يكفى اجتماع الطعام والشّراب من ناحية والحمار من ناحية أخرى كى يتّخذ منها دليلٌ يقنع معه المارّ بأنّه لبث مائة عام . إنّ من أراد ألاّ يتّخذ منها دليلاً يستطيع ألاّ يستنتج من الطّعام أىّ شىء إذ لا فرق بين طعامه وشرابه وبين غير طعامه وشرابه ، كما أنّه يستطيع أن يظنّ أنّ العظام الّتى يرى بيضاء رَميمًا لحمارٍ غير حماره بعد العهد بموته .

وبما أنّ المارّ على القرية فردٌ واحد وسيقّدم له الدّليل على لبثه مائة عام ، وبما أنّ محور الحديث هو البعث بعد الموت ، وبما أن الهدف من تجلّى هذه القدرة الإلٰهيّة المطلقة أن تتّخذ دليلاً على البعث بعد الموت بعامّة ، لذا تقدّم فى الآية الكريمة الحديث عن كون المارّ ذاته آيةً للنّاس على قدرة الله تعالى المطلقة على إعادة الحياة بعد الموت من أجل الحساب فالثّواب والعقاب ، لذا تقدّم الحديث عن كون المارّ ذاته آيةً على الدّليل الّذى يوقن معه المارّ أنّه لبث مائة عام . قال تعالى : ﴿ ولنجعلك آيةً للنّاس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثمّ نكسوها لحما ﴾ .

ونعود إلى الحديث عن الجزئيّات وفق تسلسلها فمع القول : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه ﴾ . لقد عرفنا دور فاء العطف هنا فهى تدلّ على التّرتيب مع التّعقيب وتدلّ على أنّ ما قبل الفاء سببٌ فيما بعدها وكأنّ المعنى : قال الملك ما لبثت يومًا أو بعض يوم بل لبثت مائة عام فانظر دليلاً على قدرتنا إلى طعامك وشرابك الّذى لم يتسنّه . ويلفت النّظر الحديث ابتداءً عن الطّعام والشّراب لأنّهما بطبعهما سريعا التّغيّر فكيف إذا كان الطّعام فاكهةً كالعنب والتّين وكان الشّراب عصيرًا أو لبنا . ويقترن بالطّعام والشّراب ضمير المخاطب دليلاً على الاهتمام به . ثمّ إنّ الحديث عن عدم تطرّق الفساد إلى الطّعام والشّراب يجمع بين عجيبتين . الأولى هى أنّ القول لم يتسنّه ذو علاقةٍ بالسّنة والمعروف أنّ المارّ لبث مائة سنةٍ أو عام . والثّانية هى أنّ لفظة سنة بمعنى عامٍ أو حول ترتبط بالجدب والشّقاء بينما لفظ عام يرتبط بالخير والعطاء ، وكأنّ القول : ﴿ لم يتسنّه ﴾ ينفى عن الطّعام ما يرتبط عادةً بمرور السّنين ، وبخاصّةٍ سنو الجدب والشّقاء . ثمّ إنّ القول : ﴿ لم يتسنّه ﴾ ينفى عن الطّعام والشّراب وراء ذلك أبسط مظاهر التّغير والتّحوّل إلى الفساد . ﴿ وكان الله على كلّ شيءٍ مقتدرا ﴾(١) ونستطيع أن نفهم أنّ العين حينما لا تتبيّن فى الطّعام والشّراب أدنى تغيّر لا يتبيّن شيءٌ من تغيّر فى الرّائحة أو الطّعم بعد عدم تغيّر اللّون .

وإنّ استعمال حاسّة البصر بشأن الطّعام والشّراب توطئة لاستعمال هذه الحاسّة بشأن الدّليل الآخر الّذى يبتعد فى المكان عن الطّعام والشّراب ، ألا وهو الحمار الّذى طال العهد بموته وغدا عظمه رميما . قال تعالى : ﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ .

إنّ النّظر يجمع بين دليل الطّعام والشّراب ودليل الحمار ولكن شتّان بين الحالين طرافةٌ وجدّة فى حقّ الطّعام والشّراب ، وموتٌ ورفاتٌ فى حقّ الحمار . وكما تبيّنّا من قبل ، كلٌّ من الدّليلين آيةٌ فى ذاته ، ولكنّ كلاً منهما بحاجةٍ إلى الدّليل الّذى يقول بتحقّق صفة كلّ منهما . وكما تبيّنّا من قبل كذلك ، حاجة الآخرين لاستخلاص الدّليل على البعث من المارّ على القرية ذاته تتقدّم حاجة الفرد ، ولذا تقدّم ما يخصّ الجماعة فى القول : ﴿ ولنجعلك

---

(١) سورة الكهف ٤٥ .

آيةً للنّاس ﴾ على ما يخصّ الفرد فى القول : ﴿ وانظر إلى العظام .... ﴾.

ويصحّ أن يلفت انتباهنا جملة جعل فى القول : ﴿ ولنجعلك ﴾ إذ المعروف أنّ جملة جعل تمثّل مرحلةً تاليةً لجملة خلق ، فبما أنّ المارّ على القرية قد مرّ بمرحلة إيجاد الله تعالى له وخلقه ، لذا كان التّحوّل إلى الجملة الّتى ترتبط بمرحلةٍ تالية هى مرحلة الجعل ، بمعنى جعل المخلوق وتصييره شيئًا آخر وتهيئته للقيام بالغاية الّتى خلق من أجلها والوظيفة الّتى أوجد للقيام بها . والّذى يلفت الانتباه إلى جملة جعل مجيئها بين جملة «نظر » مرّتين بين يديها ومرّةً من خلفها . والآية هنا بمعنى الحجّة القويّة والدّلالة البيّنة على قدرة الله تعالى المطلقة على إعادة الحياة إلى الأموات ومن هم فى حكم الأموات فى المنام وشبه المنام كأهل الكهف . وإنّ لفظة ناس هى الّتى تستعملها الجزئيّة الكريمة تنبيهًا إلى الهدف من هذه الآية الجليلة الدّالّة على قدرة الفعّال لما يريد ، فالمقصود منها النّاس كلّ النّاس ، مؤمنهم وكافرهم . أمّا المؤمن فليزداد إيمانًا إلى إيمانه وأمّا الكافر فليؤمن بعد كفره .

فإذا تحوّلنا إلى الدّليل الّذى يترتّب عليه كلٌّ من الأدلّة الثّلاثة السّابقة . وذلك فى القول : ﴿ وانظر إلى العِظام كيف نُنْشِزُها ثمّ نكسوها لحمًا ﴾ استطعنا أن نتبيّن فعلاً أنّه الدّليل الّذى يُبْنى عليه كلّ دليل ولذلك كان خاتمة مسك الأدلّة . وتفسير ذلك أنّ هذا الدّليل الأخير الّذى ينظر معه المارّ على القرية عظام حماره الّتى غدت بيضاء رميما قد ارتفعت بقدرة الله تعالى وركب بعضها بعضًا وغدت هيكلاً عظميًّا للحمار الّذى كُسِى بقدرة الله تعالى لحمًا وغدا كما كان فى أوّل خلقه وعادت إليه الحياة ونهق بعد أن نفق ، هذا الدّليل الأخير الّذى يراه المارّ على القرية امتدادًا لما رأى من عظام حماره النّخرة المتناثرة يحمل هذا المارّ على الإيقان بأنّ الطّعام والشّراب اللّذين يراهما أمامه هما طعامه وشرابه ، وبأنّ العظام البالية المتناثرة الّتى يراها تأخذ شكل الحمار هى عظام حماره الّذى طال العهد بموته .

وهكذا يتبيّن أنّ القول : ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثمّ نكسوها لحمًا ﴾ يعتبر دليلاً مؤكّدًا لصحة دليل الطّعام والشّراب ودليل العظم المتفتّت للحمار . وهذا القول دليلٌ كذلك على القول : ﴿ ولنجعلك آيةً للنّاس ﴾ لأنّنا إذا تمثّلنا حال المارّ على القرية

كحال أصحاب الكهف الّذين عنتهم الآية الكريمة(١) : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حقّ وأنّ السّاعة لا ريب فيها .... ﴾ بمعنى أنّ النّاس قد أخذوا من المارّ على القرية العبرة ووجدوا فيه الدّليل على البعث فلا شكّ أنّ فى رؤية المارّ على القرية حماره وقد عاد حيًّا جوابًا على تساؤله : ﴿ أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ وحملاً له على أن يوقن بأنّه هو نفسه قد أماته الله تعالى مائة عامٍ ثمّ بعثه ، وبذلك يتحقّق الانسجام بين النّاس وبين المارّ على القرية ، وإذا كان النّاس والمارّ على القرية يشتركون فى الإفادة من الآية فإنّ المارّ على القرية ينفرد بكونه هو الآية فى حقّ النّاس ، وأنّ حماره هو الآية فى حقّه إذ نميل إلى الاعتقاد بأنّ المارّ وحده هو الّذى انفرد بالنّظر إلى حماره وقد غدا رميمًا ، وبالنّظر إلى حماره وقد أخذ بإرادة الله تعالى يعود إلى الشّكل الّذى كان عليه وإلى الحياة الّتى كان عليها . إنّ هذه العمليّة الّتى رآها المارّ على القرية يصحّ أن نمثّل لها — ولله المثل الأعلى — بالمرحلة الثّانية من مرحلتين يتم خلال أولاهما التّصوير المتتابع لحال حيوان يموت ويتحلّل جسده ويتناثر عظمه ويغدو رميما ، ويتم خلال ثانيتهما إعادة عرض تلك الحال عودًا إلى الأمام وابتداءً بالنّهاية . ها هى ذى العظام متناثرة وها هى ذى العظام تلتئم وجسد الحيوان تكتمل أجزاؤه حتّى يعود حيًّا . وتظلّ هذه المرحلة الثّانية من العمليّة عاجزةً عن تحقيق معنى قوله تعالى ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ بمعنى وانظر إلى العظام كيف نرفعها ونركّب بعضها على بعض ونجمع بعضها إلى بعض . إنّ العادة فى الحيوان الّذى يموت أن يطّرح الأرض وأن يلقى عليها ، وإنّما يكون ارتفاع العظام بارتفاع جسد الحيوان الحىّ وقد وقف على قوائمه . إنّ كلاًّ من الحياتين ، حياة المارّ على القرية وحياة حماره آية عظمى دالّة على البعث والنّشور وعلى قدرة الفعّال لما يريد جلّ وعلا .

أما وقد تبيّن للمارّ على القرية كلُّ شىءٍ ووجد الجواب الشّافى على تساؤله : ﴿ أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ فقد جاء عنه وعلى لسانه فى نهاية الآية الكريمة قوله عزّ من قائل : ﴿ فلمّا تبيّن له قال أعلم أنّ الله على كلّ شىءٍ قدير ﴾ وينبغى أن يكون لجملة الفعل المضارع : « أعلم » الدّالّة على تجدّد الفعل واستمراره دورٌ فى الإيحاء بتمثّل المارّ على

---

(١) سورة الكهف ٢١ .

القرية الدّائم لذلك العلم واعتبار نفسه من أكثر خلق الله تعالى حظًّا فى مجال العلم بالبعث وفى مجال العلم بقدرة الله تعالى المطلقة على كلّ شيء ألم يكن هو بمثابة الخصم والحكم فى هذه المسألة ؟ أليس هو السّائل ، أليس هو مجال الجواب وميدانه ؟ بلى . إذن ليس لعلم هذا المارّ على القرية شبيه ولا نظير ، وليس على حظّه من العلم مزيد .

الآيـة رقـم (٢٦٠)

قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رَبِّ أرنى كيف تحيى الموتى قال أوَ لَمْ تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبى . قال فخذ أربعةً من الطّير فَصُرْهنّ إليك ثمّ اجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جزءًا ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيًا واعلم أنّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ .

وإذ قال إبراهيم : واذكر إذ قال إبراهيم[١] ويرى الطّبرىّ[٢] أنّ التّقدير : « ألم تر إذ قال إبراهيم ربّ أرنى . وإنّما صلح أن يعطف بقوله : وإذ قال إبراهيم، على قوله : أو كالّذى مرّ على قريةٍ ، وقوله : ألم تر إلى الّذى حاجّ إبراهيم فى ربّه ، لأنّ قوله : ألم تر ، ليس معناه : ألم تر بعينيك وإنّما معناه : ألم تر بقلبك ، فمعناه ألم تعلم فتذكر فهو وإن كان لفظه لفظ الرّؤية فيعطف عليه أحيانًا بما يوافق لفظه من الكلام وأحيانًا بما يوافق معناه » .

ربّ أرِنى : بصّرنى[٣] والرّؤية هنا بصريّة دخلت على رأى همزة النّقل فتعدّت لاثنين أحدهما ياء المتكلّم والآخر الجملة الاستفهاميّة[٤] وفى افتتاح السّؤال بقوله: ربّ، حسن استلطاف واستعطاف للسّؤال وليناسب قوله لنمروذ ربّى الّذى يحيى ويميت لأنّ الرّبّ هو النّاظر فى حاله والمصلح لأمره . وحذفت ياء الإضافة اجتزاءً بالكسرة وهى اللّغة الفُصْحى فى نداء المضاف لياء المتكلّم . وحذف حرف النّداء للدّلالة عليه[٥] .

كيف تحيى الموتى : سؤالٌ لكيفيّة إراءة الإحياء ليشاهد عِيانًا ما كان يعلمه بالقلب

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٩٧ والجلالين (٢) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣٢ .
(٣) الكشّاف ١ / ٢٩٦ وانظر معانى القرآن للأخفش ١ / ١٨٣ .
(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٩٧ (٥) البحر المحيط ٢ / ٢٩٧ .

وأخبربه نُمروذ[١] وقد أحسن القرطبىّ فى تفسيره الحديث حول سؤال إبراهيم عليه السّلام ونقتطف ممّا قال بعض العبارات . يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[٢] :

« اختلف النّاس فى هذا السّؤال هل صدر من إبراهيم عن شكّ أم لا ؟ فقال الجمهور لم يكن إبراهيم عليه السّلام شاكًّا فى إحياء الله الموتى قطّ وإنّما طلب المعاينة . وذلك أنّ النّفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به . ولهذا قال عليه السّلام : ليس الخبر كالمعاينة . رواه ابن عبّاس لم يروه غيره . قاله أبو عمر . قال الأخفش : لم يرد رؤية القلب وإنّما أراد رؤية العين . وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والرّبيع : سأل ليزداد يقينًا إلى يقينه .... حديث أبى هريرة خرّجه البخارىّ ومسلم عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : نحن أحقّ بالشّكّ من إبراهيم إذ قال ربّ أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبى ...... قال ابن عطيّة ...... وأمّا قول النّبىّ ﷺ : نحن أحقّ بالشّكّ من إبراهيم فمعناه أنّه لو كان شاكًّا لكنّا نحن أحقّ به ، ونحن لا نشكّ ، فإبراهيم عليه السّلام أحرى ألاّ يشكّ . فالحديث مبنىٌّ على نفى الشّكّ عن إبراهيم ...... وأمّا الشّكّ فهو توقّف بين أمرين لا مزيّة لأحدهما على الآخر ، وذلك هو المنفىّ عن الخليل عليه السّلام . وإحياء الموتى إنّما يثبت بالسّمع ، وقد كان إبراهيم عليه السّلام أعلم به ، يدلّك على ذلك قوله : ربّى الّذى يحيى ويميت . فالشّكّ يبعد على من تثبت قدمه فى الإيمان فقط ، فكيف بمرتبة النّبوّة والخُلّة . والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصّغائر الّتى فيها رذيلة إجماعًا . وإذا تأمّلت سؤاله عليه السّلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكًّا وذلك أنّ الاستفهام بكيف إنّما هو سؤالٌ عن حالة شىءٍ موجود مقرّر الوجود عند السّائل والمسئول ..... وكيف فى هذه الآية إنّما هى استفهامٌ عن هيئة الإحياءِ والإحياءُ متقرّر . ولكن لمّا وجدنا بعض المنكرين لوجود شىءٍ قد يعبّرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشّىء يعلم أنّها لا تصحّ ، فيلزم من ذلك أنّ الشّىء فى نفسه لا يصحّ ، مثال ذلك أن يقول مدّ ع : أنا أرفع هذا الجبل فيقول المكذّب له : أرنى كيف ترفعه ! فهذه طريقة مجازٍ فى العبارة ومعناها تسليمٌ جدلىّ كأنّه يقول : افرض أنّك ترفعه فأرنى كيف ترفعه . فلمّا كانت عبارة الخليل

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٩٧ (٢) تفسير القرطبىّ ١١٠٥

عليه السّلام بهذا الاشتراك المجازىّ خلص الله له ذلك وحمله على أن بيّن له الحقيقة فقال له : أو لم تؤمن ؟ قال بلى . فكمل الأمر وتخلّص من كلّ شكّ ، ثمّ علّل عليه السّلام سؤاله بالطّمأنينة .

قلت : هذا ما ذكره ابن عطيّة وهو بالغ » ويقول ابن كثير(١) : « أحبّ أن يترقّى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة » « فقوله : أرنى كيف ، طلب مشاهدة الكيفيّة »(٢) .

قال أو لم تؤمن قال بلى : أو لم تؤمن أو لم تصدّق(٣) والهمزة للتّقرير كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ . المعنى أنتم خير وقد شرحنا لك صدرك وكذلك هذا معناه : قد آمنت بالإحياء(٤) والّذى يظهر أنّ التّقرير إنّما هو منسحبٌ على الجملة المنفيّة وأنّ الواو للعطف كما قال : أو لم يروا أنّا جعلنا حرمًا آمنا ونحوه . واعتنى بهمزة الاستفهام فقدّمت(٥) ولذلك كان الجواب ببلى فى قوله : قال بلى(٦) .

ولكن ليطمئنّ قلبى : أى سألتك ليطمئنّ قلبى بحضول الفرق بين المعلوم برهانًا والمعلوم عِيانا . والطّمأنينة اعتدالٌ وسكون ، وطمأنينة القلب هى أن يسكن فكره فى الشّىء المعتقد(٧) عن قتادة : ليزداد يقينًا إلى يقينه(٨) ويقول الزّمخشرىّ(٩) : « فإن قلت : بم تعلّقت اللّام فى ليطمئنّ قلت : بمحذوفٍ تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب » ويعلّق على ذلك أبو حيّان(١٠) : « واللّام فى قوله ليطمئنّ متعلّقة بمحذوف بعد لكن التّقدير : ولكن سألت مشاهدة الكيفيّة لإحياء الموتى ليطمئنّ قلبى ، فيقتضى تقدير هذا المحذوف تقدير محذوفٍ آخر قبل لكن حتّى يصحّ الاستدراك التّقدير : قال بلى ، أى آمنت ، وما سألت عن غير إيمانٍ ولكن سألت ليطمئنّ قلبى »

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٥ وانظر تفسير القرطبىّ ١١٠٧ .
(٢) تفسير القرطبىّ ١١٠٧
(٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣٥ .
(٤) انظر البحر المحيط ٢ / ٢٩٧ وتفسير القرطبىّ ١١٠٨ ومعانى القرآن للأخفش ١ / ١٨٣ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٩٨
(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٩٨ .
(٧) تفسير القرطبىّ ١١٠٨
(٨) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣٥ .
(٩) الكشّاف ١ / ٢٩٦
(١٠) البحر المحيط ٢ / ٢٩٩ .

ليسكن ويهدأ باليقين الّذى يستيقنه[١] .

قال فخذ : أمره بالأخذ للطّيور وهو إمساكها بيده ليكون أثبت فى المعرفة بكيفيّة الإحياء لأنّه يجتمع عليه حاسّة الرّؤية وحاسّة اللّمس[٢] .

أربعةً من الطّير : الطّير اسم جمعٍ كركب وسفر وليس بجمع خلافًا لأبى الحسن[٣] ويجوز تذكيره، وتأنيثه ، وهنا أتى مذكّرًا لقوله تعالى : فخذ أربعةً من الطّير . وجاء على الأفصح فى اسم الجمع فى العدد حيث فصل بمن فقيل أربعةً من الطّير ويجوز الإضافة كما قال تعالى : تسعة رهط[٤] .

فصرهنّ إليك : لقد عبّر الطّبرىّ أحسن تعبير عن معنى فَصُرْهُنَّ إليك ، يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[٥] : « اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامّة قرّاء أهل المدينة والحجاز والبصرة فصُرْهنّ إليك بضمّ الصّاد من قول القائل : صُرْتُ هذا الأمر إذا ملت إليه أصُورُ صَوْرًا[٦] ويقال إنّى إليكم لأَصْوَر أى مشتاق مائل . ومنه قول الشّاعر :

الله يعلـــم أنّـــا فى تلفّتنـــا يـــوم الفِـــراق إلى أحبابنـــا صور

وهو جمع أصور وصوراء وصُور مثل أسود وسوداء وسود . ومنه قول الطّرمّاح :

عفائـــف الأذيـــال أو أن يصورهـــا هـــوىً والهوى للعـــاشقين صروع

يعنى بقوله أو أن يصورها هوى يميلها . فمعنى قوله : فصرهنّ إليك اضممهنّ إليك ووجّههنّ نحوك كما يقال : صُرْ وجهك إلىّ أى أقبل به إلىّ . ومن وجّه قوله : فصرهنّ إليك إلى هذا التّأويل كان فى الكلام عنده متروك قد ترك ذكره استغناءً بدلالة الظّاهر عليه ويكون معناه حينئذٍ عنده . قال فخذ أربعةً من الطّير فصرهنّ إليك ثمّ قطّعهنّ ثمّ اجعل

(١) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣٤

(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٩٩ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٨٦

(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٩٩ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣٥ .

(٦) جاء فى القاموس : وصارَ الشّىءَ صَوْرًا أماله أو هدّه كأصاره فانصار . وصَوِر كفرح مال وهو أصور . ويقول الأخفش فى معانى القرآن ١ / ١٨٣ « صار يصور » ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٢ / ٢٨٦ : « وصُرْته أَصُورُه أملته » وانظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس « صور » ٣ / ٣٢٠ ومفردات الرّاغب ٢٩٠ .

على كلّ جبلٍ منهنّ جُزءًا . وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك إذا قرىء كذلك بضمّ الصّاد قطّعهنّ كما قال توبة بن الحُمَيِّر :

فلمّا جـذبت الحبـل أطّت نُسوعـه بأطـراف عيـدانٍ شديـدٍ أسورهـا

فـأدنت لى الأسبـاب حتّـى بلـغتها بنهضى وقـد كاد ارتقـائى يصورهـا

يعنى يقطعها . وإذا كان ذلك تأويل قوله فصرهنّ إليك كان فى الكلام تقديمٌ وتأخير ويكون معناه فخذ أربعةً من الطّير إليك فصرهنّ ويكون إليك من صلة خذ » ويقول القرطبى[١] : «وصُرْهنّ معناه قطّعهنّ. قاله ابن عبّاس ومجاهد وأبو عبيدة وابن الأنبارى. يقال : صار الشّىء يصوره أى قطعه وقاله ابن إسحاق . قال توبة بن الحميّر يصفه ..... وقيل المعنى أملهنّ إليك أى اضممهنّ واجمعهنّ إليك ، يقال : رجلٌ أصور إذا كان مائل العنق ..... » ويقول أبو حيّان[٢] : « وإذا كان فصرهنّ بمعنى الإمالة فتتعلّق إليك به . وإذا كان بمعنى التّقطيع تعلّق بخذ » .

ثمّ اجعل على كلّ جبل : من جبال أرضك[٣] قيل أربعة أجبل وقيل سبعة[٤] .

منهنّ جزءًا : نصيبًا[٥] وقطعة[٦] وأجمع أهل التّفسير أنّ إبراهيم قطع أعضاءهـا ولحومها وريشها وخلط بعضها ببعضٍ مع دمائها[٧] .

ثمّ ادعهنّ : عن مجاهد : تعالين بإذن الله[٨] أى قل لهنّ وصِحْ بهنّ[٩] .

يأتينك سعيًا : نصب على الحال[١٠] والسّعى هو الإسراع فى المشى . وكان إتيانهنّ

---

(١) تفسير القرطبىّ ٩ ١١٠٩ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ١٧٤ وللأخفش ١ / ١٨٣ والكشّاف ١ / ٢٩٦ والبحر المحيط ٢ / ٢٨٦ و ٣٠٠ وتفسير ابن كثير ١ / ٣١٥ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٣٠٠ وانظر تفسير القرطبىّ ٩ ١١٠٩ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣٩ وتفسير ابن كثير ١ / ٣١٥ .

(٥) تفسير القرطبىّ ٩ ١١٠٩

(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٨٦ .

(٧) البحر المحيط ٢ / ٣٠١ .

(٨) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٠ والكشّاف ١ / ٢٩٧ .

(٩) انظر الكشّاف ١ / ٢٩٧

(١٠) تفسير القرطبىّ ٩ ١١٠٩ .

مسرعات فى المشى أبلغ فى الآية إذ إتيانهنّ إليه من الجبال يمشين مسرعاتٍ هو على خلاف المعهود لهنّ من الطّيران وليظهر بذلك عظم الآية إذ أخبره أنّهنّ يأتين على خلاف عادتهنّ من الطّيران فكان كذلك . وجعل سيرهنّ إليه سعيًا إذ هو مِشْيةُ المجدّ الرّاغب فيما يمشى إليه لإظهار جدّها فى قصد إبراهيم وإجابة دعوته(١) وانتصاب سعيًا على أنّه مصدر فى موضع الحال من ضمير الطّيور أى ساعيات(٢) .

واعلم أنّ الله عزيز حكيم : واعلم أنّ الله عزيزٌ لا يعجزه شىء حكيمٌ فى صنعه(٣) وفى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره(٤) .

المناسبة :

من البيّن أنّ المحور الّذى تدور حوله الآية الكريمة والآيتان الكريمتان السّابقتان الحياة والموت . إنّ إبراهيم عليه السّلام نبّه نمروذ الطّاغية إلى أنّ ربّه جلّ وعلا هو الّذى يحيى ويميت ، ولمّا كان الطّاغية قد سوّلت له نفسه الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم أن يزعم أنّه هو الآخر يحيى ويميت فمعنى هذا أنّ الحياة والموت يُرْاد بهما إيجاد الخلائق من العدم وبثّ الحياة فيها ثمّ الموت ، ولا يمتدّ هذا المعنى إلى البعث بعد الموت لأنّ نمروذ الطّاغية الطّرف الآخر فى القضيّة كان ينازع فى الحياة الأولى وفى الموت بعدها ويزعم أنّه هو الآخر يحيى ويميت فلا مكان للبعث بعد الموت عند هذا الطّاغية أصلاً . أمّا المارّ على القرية والّذى استعظم عودة الحياة إلى الأموات الّذين بليت عظامهم فمن البيّن أنّه يتحدّث عن البعث بعد الموت وكأنّه يستعظم قدرة الله تعالى الّتى تعيد الحياة إلى الأموات وتبعثهم من قبورهم وقد ظهر هذا الاستعظام فى طريقةٍ يشتمّ منها رائحة البعد . ونميل إلى الاعتقاد بأنّ هذا المارّ على القرية مسلمٌ لله ربّ العالمين ، فهو يتحدّث عن البعث بعد الموت ولكنّه قصير النّظر عليل الفكر لذا جرى على لسانه ما جرى . ولمّا كان بحاجةٍ إلى الدّليل على البعث بعد الموت كى تزول الغشاوة عن عينيه وكى يعمل ذهنه عمله فقد شاءت العناية الإلٰهيّة

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٠٠
(٢) البحر المحيط ٢ / ٣٠٠ .
(٣) الجلالين
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٥ .

أن تحقّق له ذلك بجعله آيةً للنّاس على البعث وبجعل عظام الحمار الّتى ارتفعت وانضمّ بعضها إلى بعض والّتى كساها الله تعالى لحمًا فعادت الحياة إلى الحمار فنهق بعد أن نفق ، بجعل ذلك كلّه آيةً للمارّ على القرية ذاته . وبهذا يتبيّن أنّ المارّ على القرية يبدأ من حيث وقف النّمروذ ، فإذا كان حديث النّمروذ متعلّقًا بالحياة فى الأولى والموت فإنّ المارّ على القرية يكبر فى نفسه ويعظم فى تقديره إعادة الحياة بعد الموت أى البعث بعد الموت .

وإنّ إبراهيم عليه السّلام فى سؤاله ربّه أن يريه كيف يحيى الموتى يشترك مع المارّ على القرية فى الاهتمام بالبعث بعد الموت ولكنّ ثمّة فرقًا جوهريًّا بين الحالين . إنّ المارّ على القرية إذا كان يشتمّ من قوله استعظام عودة الحياة إلى الأموات وربّما الاستبعاد ، فقد جاء على لسانه القول : ﴿ أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ فإنّ إبراهيم عليه السّلام قمّةٌ فى الإيمان بالبعث وبقدرة الله تعالى المطلقة على فعل ما يريد ، وكلّ الّذى يريده إبراهيم عليه السّلام الّذى آتاه الله تعالى رشده من قبل هو أن يُريه الله سبحانه وتعالى بناظريه ويبصّره بعينى رأسه الكيفيّة الّتى يحيى بها الله تعالى الموتى وقد لبّى ربّ العزّة ربّ إبراهيم عليه السّلام طلب إبراهيم عليه السّلام على نحو ما بيّنت الآية الكريمة .

وتبدأ الآية الكريمة بالقول : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ أرنى كيف تحيى الموتى ﴾ والمعنى واذكر يا محمّد إذ قال إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء الّذى بعثه ربّه جلّ وعلا بالحنيفيّة السّمحة : ﴿ ربّ أرنى كيف تحيى الموتى ﴾ ويلفت انتباهنا لفظ الرّبّ بأبعاده الرّئيسيّة ، الخصوص ، القيام بواجب الشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه ، جوّ المحبّة وشذا الرّضا وعبير الامتنان . إنّ إبراهيم عليه السّلام الشّكور لمولاه الحليم الأوّاه المنيب المفعم قلبه بالامتنان لمولاه جلّ وعلا يسأل ربّه جلّ وعلا آملاً فى النّعم أن تكون موصولة والآلاء أن تكون مستمرّة ويدعو خالقه فى أحسن تقويم والّذى أسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنه أن يتفضّل عليه بأن يمكّنه أن يرى بعينى رأسه الكيفيّة الّتى يحيى بها الله تعالى الموتى .

ومن البيّن أنّ سؤال إبراهيم عليه السّلام عن كيفيّة الإحياء وهو الّذى سبق أن جاء على لسانه خطابًا لنُمروذ الطّاغية : ﴿ ربّى الّذى يحيى ويميت ﴾ ويلاحظ أنّ لفظ ربّ هو الّذى يجىء على لسان إبراهيم عليه السّلام فى المناسبتين الاثنتين بمعانيه العميقة

ومراميه القصيّة .

وإنّ ربّ العزّة ربّ إبراهيم عليه السّلام الّذى لا يخفى عليه إيمان إبراهيم عليه السّلام المطلق والّذى يريد أن يعلم — عزّ وجل — علم ظهور إيمانه عليه السّلام المطلق ليسأل إبراهيم عليه السّلام كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ قال أو لم تؤمن ﴾ ؟ والمعنى أو لم تؤمن يا إبراهيم إيمانًا مطلقًا ؟ وكان جواب إبراهيم عليه السّلام بالإيجاب وذلك عن طريق النّفي فى الجواب النّفيَ فى السّؤال ونفىُ النّفى إثباتٌ وإيجاب : ﴿ قال بلى ﴾ والمعنى قال إبراهيم عليه السّلام بلى قد آمنت إيمانًا مطلقًا بقدرتك ربّى ربّ العالمين على كلّ شىءٍ ومن ذلك إحياء الموتى ، ولكن سألتك يا إلهى أن ترينى كيف تحيى الموتى ليطمئنّ قلبى ويهدأ ويسكن : ﴿ قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبى ﴾ إنّى موقنٌ يا إلٰهى بقدرتك المطلقة على إحياء الموتى وإنى — بفضلك علىّ يا إلٰهى وكرمك — حاصلٌ فى هذا الشّأن على علم اليقين وإنّ نفسى الطُّلعة تريد لى أن أترقّى من علم اليقين إلى عين اليقين وذلك حينما يقترن بالمعلوم برهانًا المعلومُ عِيانا . إنّ كلّ شىءٍ فى هذا الوجود يبرهن على قدرتك المطلقة على ذلك وقد قيل :

وفى كــــلّ شىءٍ لـــــه آيــــــةٌ تــــدلّ على أنّـــــه واحــــــد

وإنّ بحصول العلم عِيانًا يزداد القلب اطمئنانًا والنّفس استقرارًا والحجّة بيانًا .

وإنّ تلبية الله سبحانه وتعالى طلب إبراهيم عليه السّلام ليذكّرنا بطلب موسى عليه السّلام وقد جاء لميقات ربّه وكلّمه ربّه جلّ وعلا ، ذلك الطّلب الّذى لم يتحقّق بل تحقّقت الحكمة من عدم تلبيته وإلى ذلك أشار قوله تعالى(١) : ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرنى أنظر إليك . قال لن ترانى ولكنِ انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى . فلمّا تجلّى ربُّه للجبل جعله دكًّا وخرّ موسى صَعِقا . فلمّا أفاق قال سبحانك تُبْتُ إليك وأنا أوّل المؤمنين ﴾ .

إنّ ربّ العزّة الّذى لا يُسْأل عمّا يفعل يجيب إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء إلى طلبه ويأمره جلّ وعلا أن يأخذ أربعةً من الطّير . ونستطيع أن نتبيّن فى جملة أخذ الأخذ باليد ،

---

(١) سورة الأعراف ١٤٣ .

والعادة جرت أن يرتبط بعمليّة الأخذ القوّة والشّدّة وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ وكذلك أَخْذُ ربّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إنّ أخذه أليمٌ شديد ﴾ والعادة جرت كذلك أن يرتبط بعمليّة الأخذ باليد أدقّ العمليّات وأحوجها للضّبط والإتقان لذلك أسندت ، على سبيل المثال عمليّة الكلام أو الاعتراف للأيدى وعمليّة الشّهادة للأرجل يوم القيامة . قال تعالى[٢] : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ كما أسندت إلى الرّجل عمليّة المشى وإلى الأيدى عمليّة البطش، وليس بخافٍ دور اليد الأكثر دقّة وذلك فى قوله تعالى[٣] : ﴿ ألهم أَرْجلٌ يمشون بها أم لهم أيدٍ يَبْطِشون بها أم لهم أعينٌ يبصرون بها أم لهم آذانٌ يسمعون بها . قل ادعوا شركاءَكُمْ ثمّ كيدونِ ولا تُنْظِرون ﴾ .

ولم يأبه القرآن الكريم بأنواع الطّير الّتى أمر الله تعالى إبراهيم عليه السّلام أن يأخذها بيده ، إنّما عيّن القرآن الكريم عدد هذه الطّير بأنّها أربعة . كما لم يعيّن عدد الجبال الّتى يوضع على كلٍّ منها جزءٌ من تلك الطّير وقد حدّدها بعضهم بأنّها أربعة وبعضهم بأنّها سبعة . وإنّما يكون التّعيين إن كان ثمّة فائدة ولهذا حدّد عدد الطّير بأنّها أربعة لأنّها تكفى لتحقيق الغاية وتأدية الغرض . وإنّما لا يكون التّعيين إذا لم يكن ثمّة فائدة من التّعيين لذا أبهم نوع الطّير وعدد الجبال .

وإنّما كان النّصّ على عمليّة الأخذ لهذا النّوع المعيّن والعدد المعيّن من الطّير لأنّ فى أخذها باليد فرصةً كبرى لإبراهيم عليه السّلام كى يتأمّلها ويتملّاها بعينيه ويتفكّر فى قدرة الله تعالى على خلق هذه الأنواع المختلفة من الطّير من بين مخلوقاته وجنده جلّ وعلا الّتى لا يعلمها إلاّ هو ، ويتدبّر تمام الخلق وكمال الإتقان والإبداع وحظّ كلٍّ من تلك المخلوقات الموفور من الكمال والجمال والجلال وتحقيق الغاية الّتى خلق من أجلها فتبارك : ﴿ الّذى له ملك السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ فى الملك وخَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدّره تقديرا ﴾[٤] و ﴿ الّذى خلق سبع سماواتٍ طباقًا ما ترى

(١) سورة هود ١٠٢
(٢) سورة يس ٦٥ .
(٣) سورة الأعراف ١٩٥
(٤) سورة الفرقان ٢ .

فى خلق الرّحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير ﴾(١) .

ولا تكتفى الآية الكريمة بعمليّة الأخذ الّتى يرتبط بها القوّة والسّيطرة على المأخوذ وربّما ارتبط بها فرصة تأمّل المأخوذ عن كثب ، إنّما تتجاوز ذلك إلى تقرير ما يؤدّى إلى دنوّ المأخوذ من الآخذ وإتاحة الفرصة الكاملة للإحاطة بالصّفات الذّاتيّة لكلّ طائر بحيث يكون التّعرّف على الطّير بعد إحيائها سهلاً ميسورًا ، مضمونًا وأكيدا ، لذا جاء القول فى الآية الكريمة : ﴿ فصرهنّ إليك ﴾ بمعنى أملهن إليك واضممهنّ نحوك ليتسنّى لك يا إبراهيم التّعرّف عليها بصفةٍ أكيدة بعد إعادة الحياة إليها .

والحقيقة أنّ مجىء الفاء مرّتين فى القول : ﴿ فخذ أربعةً من الطّير فصرهنّ إليك ﴾ ومجىء ثمّ مرّتين اثنتين بعد ذلك فى القول : ﴿ ثمّ اجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جزءًا ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيًا ﴾ ممّا يشدّ الانتباه إلى دور كلٍّ من حرفى العطف الفاء وثمّ إذ المعروف أنّ حرف الفاء يفيد أنّ ما قبل الفاء سببٌ فيما بعدها ، وأنّ الحرف « ثمّ » يفيد التّرتيب مع التّراخى . وهذا معناه أنّ عمليّة الأخذ للطّير تتلوها مباشرةً العمليّة المترتّبة عليها وهى إمالة الطّير إليه وتقريبها منه وضمّها إليه .

أما وقد فهمنا القول : ﴿ فَصُرْهنّ إليك ﴾ بأنّه بمعنى أملهنّ إليك واضممهنّ نحوك لارتباط عمليّة الضمّ والإمالة والقرب بعمليّة الأخذ ، وأنّه ليس بمعنى التّقطيع ، لأنّ عمليّة التّقطيع تسبقها أكثر من عمليّة من أخذٍ فذبحٍ فنتفٍ للرّيش وقطعٍ للرّأس وما إلى ذلك ، ولأنّا لو ذهبنا إلى القول : ﴿ فصرهنّ إليك ﴾ بمعنى فقطعهن لكان فى الكلام تقديمٌ وتأخير غير لا زمين ﴿ ويكون معناه فخذ أربعة من الطّير إليك فصرهنّ ﴾(٢) أما وقد فهمنا القول : ﴿ فصرهنّ إليك ﴾ بأنّه بمعنى أملهنّ إليك واضممهنّ نحوك بسبب انسجام الكلام وإحكام النّظم دون الحاجة إلى افتراض تقديم وتأخير ، وبسبب دور كلٍّ من الفاء الّتى تدلّ على التّرتيب مع التّعقيب والحرف « ثمّ » الدّالّ على التّرتيب مع التّراخى ، فإنّا نستطيع أن نملأ بعض المعانى الّتى تجاوزتها الآية الكريمة اكتفاءً بإيماء الكلام

---

(١) سورة الملك ٣ ، ٤

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣٦ .

المذكور إليها والإشعار بها ، وبالتّالى يصحّ أن يكون المعنى : فخذ بيديك أربعةً من الطّير التى تصل إليها يداك وأمِلْها إليك وقرّبها نحوك وأنعم فيها النّظر وأَدِم فيها التّأمل واذبحها وانتف ريشها وقطّعها واخلط دماءها ولحومها وريشها . وإنّ هذه العمليّات الّتى ذكرنا بعضها تهيّئ بعد ذلك لمجيء حرف العطف « ثمّ » وذلك فى القول : ﴿ ثمّ اجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جزءًا ﴾ .

وسواءً كانت الجبال أربعةً أو سبعة ، فإنّها تظلّ متباعدة وتستغرق عمليّة جعل جزءٍ على كلّ واحدٍ من تلك الجبال زمنًا ليس بالقصير . والّذى دلّ على بعد أماكن الجبال بالضّرورة عن إبراهيم وعن بعضها جملة يأتى فى القول : ﴿ ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيًا ﴾ إذ المعروف أنّ جملة أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد المكانىّ أو الزّمانىّ أو المعنوىّ . والّذى دلّ على البعد الزّمنىّ حرف العطف « ثمّ » إضافةً إلى ما تفيده جملة أتى من بعدٍ زمنىّ بسبب دلالتها على البعد المكانىّ هنا أصلاً ووجوب قطع الطّير تلك المسافات سعيًا وجريًا وليس طيرانًا وتحليقا .

لقد امتثل إبراهيم عليه السّلام أمر ربّه وجعل على كلّ جبلٍ من الطّيور المذبوحة المقطّعة جزءًا واحتفظ بالرّءوس الأربعة عنده ، كما امتثل أمر ربّه جلّ وعلا فى القول : ﴿ ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيًا ﴾ .

لقد دعاهنّ إبراهيم عليه السّلام كما أمره ربّه جلّ وعلا قائلاً تعالين بإذن الله تعالى .

وعلى الرّغم من كوننا ليس لدينا الدّليل على كون الجبال أربعة أو سبعة فليس ثمّة مانعٌ من الظّنّ بكون الجبال أربعةً بعدد الطّير وموزّعةً على الجهات الأصليّة تقريبًا . وفى هذه الحال نستطيع أن نتمثّل تطاير الأشلاء من الجبال واجتماع كلٍّ منها على جبلٍ واحد والتئام تلك الأشلاء حتّى عاد كلّ طائر إلى أصل هيئته باستثناء رأسه الّذى ظلّ يحتفظ به إبراهيم عليه السّلام فى يده . وبناءً على دعاء إبراهيم عليه السّلام إيّاهنّ اتّجه كلّ طائرٍ من جبله إلى إبراهيم عليه السّلام ، ليس طيرانًا ولكن سعيًا وجريًا دليلاً على الاستجابة وتلبية النّداء وفرط الاهتمام . فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ الّذى لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء . وقطع كلّ طائرٍ المسافة البعيدة معتمدًا على رجليه وليس على جناحيه من

تمام المعجزة وكمالها حتّى التحم كلّ جسدٍ متحرّكٍ برأسه الّذى يمسك به إبراهيم عليه السّلام بيده .

وهكذا أرى الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السّلام كيفيّة إحيائه جلّ وعلا الموتى وختمت الآية الكريمة بمخاطبة إبراهيم عليه السّلام بالقول : ﴿ واعلم أنّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ واعلم يا إبراهيم أنّ الله سبحانه وتعالى عزيزٌ فى ملكه لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء حكيمٌ فى صنعه وهو جلّ وعلا الّذى خلق الموت والحياة ليبلو المكلّفين أيّهم أحسن عملاً ، ولحكمةٍ اقتضتها مشيئته جلّ وعلا فى حقّ غير المكلّفين ﴿ وخَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدّره تقديرا ﴾(١) .

---

(١) سورة الفرقان ٢ .

[١٧]

الحثّ على الإنفاق فى سبيل الله تعالى

وشروطه وثوابه

الآيات (٢٦١ ــ ٢٧٤)

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ
لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ
أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟
صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾
وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ
فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم

بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾
وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟
ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ
وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ
وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ
لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم
بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

ممّا عنيت به سورة البقرة الكريمة الجهاد فى سبيل الله تعالى وهو يقوم على دعامتين اثنتين الجهاد بالنّفس والجهاد بالمال ، ومن هنا كانت العناية فى نهاية سورة البقرة الكريمة بالمال كبيرة وبخاصّةٍ كسبه وإنفاقه . إنّ الكسب ينبغى أن يكون من طريقٍ مشروع وإنّ الإنفاق ينبغى أن يكون فى وجوه البرّ . لقد بيّن السّياق ثواب الإنفاق الّذى يصل إلى سبعمائة ضعف فأكثر شريطة أن يكون الإنفاق فى سبيل الله تعالى وشريطة ألاّ يُتبع المنفق ما أنفق منًّا ولا أذى . ثمّ إنّ القول المعروف للسّائل والتّجاوز عنه حينما يلحف فى المسألة خيرٌ من صدقة يتبعها أذىً لهذا السّائل . ونهى السّياق المنفق عن إبطال ثواب صدقته بالمنّ والأذى فإنّ مثله مثل المرائى . وهذا المرائى مثله مثل الحجر الأملس الّذى عليه ترابٌ فأصابه مطرٌ شديد أزال التّراب عنه وأظهره على حقيقته . إنّ الحجر الأملس ظهر على حقيقته صخرةً صمّاء ، وإنّ المانّ والمرائى وكذلك الكافر ظهروا على حقيقتهم فغدت أعمالهم هباءً منثورا . وهذا المثل بعكس المثل الّذى ضرب للمنفق ماله فى سبيل الله تعالى . إنّ مثله مثل الجنّة على الرّبوة الّتى أصابها الوابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فمطرٌ قليلٌ يكفيها . والوابل يقابل الإنفاق الكثير والطّلّ يقابل الإنفاق القليل . ويحذّر الإنسان وبخاصّةٍ حينما يكون كبير السّن من إبطال أعماله الصّالحة فيكون مثله كمثل المزارع الّذى له جنّةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجرى من تحتها الأنهار وله فيها من كلّ الثّمرات وأصابه الكبر وله ذرّيّةٌ صغارٌ ضعفاء فكان أشدّ الخلق حاجةً لجنّته فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت . إنّ عاقبة المنّ والأذى وعمل السّيّئات عمومًا الخسران . وكما كانت العناية كبيرةً بوجوه الإنفاق كانت العناية بكسب المال الّذى ينبغى أن يكون طيّبًا ينفق منه وليس من المال الخبيث الرّدىء وغير الجيّد الحرام غير الحلال . إنّ الشّيطان يعدنا الفقر ويأمرنا بالفحشاء والله يعدنا مغفرةً منه وفضلاً ، ويؤتى الحكمة من يشاء وذلك هو الخير الكثير . والله يعلم ما أنفقنا من نفقة وما نذرنا من نذر ، وإن أبدينا الصّدقة فنعم شيئًا إبداؤها

والأفضل أن نخفيها ونعطيها من يستحقّها وسوف يوفّينا الله تعالى أجورنا . وإنّ من أولى النّاس بالإنفاق عليهم الفقراء المجاهدين فى سبيل الله تعالى الملازمين للثّغور فلا يستطيعون مغادرة جبهة القتال طلبًا للرّزق وهم عفيفو النّفوس يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء الجيوب والحقيقة أنّهم أغنياء النّفوس يعرف حقيقة حاجتهم من ينظر بنور الله تعالى إلى سيماهم الّتى فى وجوههم . إنّ الّذين ينفقون أموالهم باللّيل سرًّا وعلانية وبالنّهار علانيةً وسرًّا لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم فيما يأتى ولا هم يحزنون بشأن ما مضى وانقضى .

الآيـة رقـم (٢٦١)

قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابل فى كلّ سنبلةٍ مائةُ حبّة . والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم ﴾ .

مَثَلُ الّذين ينفقون أموالهم : المثل هنا الصّفة ، ولذلك قال : كمثل حبّة ، أى كصفة حبّة[1] وفى الكلام حذف مضافٍ تقديره : مثل نفقة الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّة . وطريقٌ آخر : مثل الّذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع فى الأرض حبّةً فأنبتت الحبّة سبع سنابل ، يعنى أخرجت سبع سنابل فى كلّ سنبلةٍ مائة حبّة ، فشبّه المتصدّق بالزّارع وشبّه الصّدقة بالبذر فيعطيه الله بكلّ صدقةٍ له سبعمائة حسنة[2] ويقول أبو حيّان[3] : « وهذه الآية شبيهةٌ فى تقدير الحذف بقوله : ﴿ ومثل الّذين كفروا كمثل الّذى ينعق ﴾ ، فيحتمل أن يكون الحذف من الأوّل أى مثل مُنْفَق الّذين ، أو من الثّانى أى كمثل زارع حتّى يصحّ التّشبيه . أو من الأوّل ومن الثّانى باختلاف التّقدير ، أى مثل الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ومنفقهم كمثل حبّةٍ وزارعها » .

فى سبيل الله : جميع ما هو طاعةٌ وعائدٌ نفعه على المسلمين . وأعظمها وأغناها[4]

---

(١) البحر المحيط ٢ /٣٠٣ والجلالين .
(٢) تفسير القرطبىّ ١١١١ وانظر الكشّاف ١ / ٢٩٧ وأمثال القرآن لابن القيّم ص ٤٩ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ٣٠٣ (٤) فى الأصل : « وأعناها » .

الجهاد لإعلاء كلمة الله . وقيل المراد بسبيل الله هنا الجهاد خاصّة . وظاهر الإنفاق فى سبيل الله يقتضى الفرض والنّفل ويقتضى الإنفاق على نفسه فى الجهاد وغيره ، والإنفاق على غيره ليتقوّى به على طاعةٍ من جهادٍ أو غيره[١] ويقول الطّبرىّ[٢] : « يعنى بذلك مثل الّذين ينفقون أموالهم على أنفسهم فى جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم » « قال سعيد بن جبير : يعنى فى طاعة الله . وقال مكحول : يعنى به الإنفاق فى الجهاد من رباط الخيل وإعداد السّلاح وغير ذلك »[٣] .

كمثل حبّة : الحبّة اسم جنسٍ لكلّ ما يزدرعه[٤] ابن آدم ويقتاته ، وأشهر ذلك البرّ ، فكثيرًا ما يراد بالحبّ . ومنه قول المتلمّس :

آليت حبّ العراق الدّهرَ أطعمه ... والحبّ يأكلـه فى القريـة السّوس

وحبّة القلب سويداؤه[٥] وشبّه الإنفاق بالزّرع لأنّ الزّرع لا ينقطع[٦] .

أنبتت : الإنبات الإخراج على سبيل التّولّد[٧] ومعنى إنباتها سبع سنابل أن تخرج ساقًا يتشعّب منها سبع شعب لكلّ واحدةٍ سنبلة[٨] .

سبع سنابل : خصّ سبعًا من العدد لأنّه كما ذكروا أقصى ما تخرجه الحبّة من الأسوق[٩] قيل : واختصّ هذا العدد لأنّ السّبع أكثر أعداد العشرة ، والسّبعين أكثر أعداد المائة ، وسبع المائة أكثر أعداد الألف . والعرب كثيرًا ما تراعى هذه الأعداد . قال تعالى : سبع سنابل وسبع ليالٍ وسبع سنبلاتٍ وسبع بقراتٍ وسبع سماوات وسبع سنين ، وإن تستغفر لهم سبعين مرّة ، ذرعها سبعون ذراعًا . وفى الحديث : إلى سبعمائة ضعف إلى سبعة آلاف إلى ما لا يحصى عدده إلاّ الله[١٠] ويقول الزّمخشرىّ[١١] : « فإن قلت :

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٠٤ (٢) تفسير الطّبرىّ ٢ / ٤١ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٦ .
(٤) يزدرعه : يزرعه ، يقال : زرع وازدرع بمعنى طرح البذر فى الأرض .
(٥) تفسير القرطبى ١١١٢ (٦) البحر المحيط ٢ / ٣٠٤ .
(٧) البحر المحيط ٢ / ٣٠٢ .
(٨) الكشّاف ١ / ٢٩٧ وانظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٤ وأمثال القرآن لابن القيّم ص ٥٠ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٣٠٤ (١٠) البحر المحيط ٢ / ٣٠٤ .
(١١) الكشّاف ١ / ٢٩٧ .

هلاّ قيل سبع سنبلات على حقّه من التّمييز لجمع القلّة كما قال : وسبع سنبلات خضر ؟ قلت : هذا لما قدّمت عند قوله : ثلاثة قروء من وقوع أمثلة الجمع متعاورة مواقعها »

ويقول أبو حيّان(١) : « وأتى التّمييز هنا بالجمع الّذى لا نظير له فى الآحاد وفى سورة يوسف بالجمع بالألف والتّاء فى قوله : وسبع سنبلات خضر ..... وتحصّل من هذا الّذى قرّرناه أنّ قوله سبع سنابل جاء على ما تقرّر فى العربيّة من كونه جمعًا متناهيًا وأنّ قوله : سبع سنبلات إنّما جاز لأجل مشاكلة سبع بقرات ومجاورته » .

فى كلّ سنبلة : سنبلة فُنْعلة من أسبل الزّرع إذا صار فيه السُّنبل ، أى استرسل بالسّنبل كما يسترسل السّتر بالإسبال . وقيل : معناه صار فيه حبّ مستور كما يستر الشّىء بإسبال السّتر عليه والجمع سنابل(٢) والسّنابل : سنابل الزّرع من البرّ والشّعير والذّرة ، الواحدة سنبلة . والسُّنبلُ من الزّرع واحدته سُنْبُلة ، وقد سَنْبَلَ الزّرع إذا خرج سُنْبُلُــه . والسُّنبلانىّ من الثّياب السّابغ الطّويل الّذى قد أُسْبِل . وسَنْبَلَ ثوبه إذا أسبله وجرّه من خلفه أو أمامه ، والنّون زائدة مثلها فى سُنْبُل الطّعام(٣) والسُّنبلة : الزّرعة المائلة . وقد أَسْبَلَ الزّرع إذا سَنْبَل . وقد سنبل الزّرع أى خرج سُنْبُله(٤) .

مائة حبّة : قال ابن عطيّة : وقد يوجد فى سنبل القمح ما فيه مائة حبّة ، فأمّا فى سائر الحبوب فأكثر ولكنّ المثال وقع بهذا القدر(٥) فى هذه الآية دليلٌ على أنّ اتّخاذ الزّرع من أعلى الحِرَف الّتى يتّخذها النّاس والمكاسب الّتى يشتغل بها العمّال ، ولذلك ضرب الله به المثل فقال : مَثَلُ الّذين ينفقون أموالهم . الآية . وفى صحيح مسلم عن النّبىّ ﷺ : ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له صدقة . وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : التمسوا الرّزق فى خبايا الأرض يعنى الزّرع ، أخرجه التّرمذىّ . وقال ﷺ فى النّخل : هى الرّاسخات فى الوَحَل(٦) المطعمات فى المَحْل(٧) وهذا خرج مخرج المدح . والزّراعة من

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٠٤ و ٣٠٥

(٢) تفسير القرطبىّ ١١١٢ .

(٣) لسان العرب « سنبل »

(٤) لسان العرب « سنبل » .

(٥) تفسير القرطبىّ ١١١٢ .

(٦) الوحَل بفتح الحاء : الطّين الرّقيق وبالتّسكين لغةٌ رديئةٌ فى الوَحَل .

(٧) المحل بسكون الحاء : الشّدّة والجدب والجوع الشّديد .

فروض الكفاية فيجب على الإمام أن يجبر النّاس عليها . وما كان فى معناها من غرس الأشجار(١) .

والله يضاعف لمن يشاء : إعلامٌ بأنّ الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف(٢) فيكون مثل المتصدّق مثل الزّارع ، إن كان حاذقًا فى عمله ويكون البذر جيّدًا وتكون الأرض عامرة يكون الزّرع أكثر ، فكذلك المتصدّق إذا كان صالحًا والمال طيّبًا ويضعه موضعه فيصير الثّواب أكثر ، خلافًا لمن قال : ليس فى الآية تضعيفٌ على سبعمائة(٣) ويقول ابن القيّم(٤) : « فإنّ ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتّثبّت عند النّفقة ، وهو إخراج المال بقلبٍ ثابتٍ قد انشرح صدره بإخراجه وسمحت به نفسه وخرج من قلبه قبل خروجه من يده ، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده . ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه وبحسب طيب المنفق وزكائه » .

من القضايا الّتى عنيت بها سورة البقرة الكريمة قضيّة الجهاد فى سبيل الله تعالى . والمعروف أنّ الجهاد فى سبيل الله تعالى يقوم على دعامتين اثنتين الجهاد بالنّفس والجهاد بالمال . ومع تقرير القسم السّابق أنّه لا إكراه فى الدّين ، رغم كون دين الإسلام هو دين الحقّ وهو الدّين عند الله تعالى الّذى لا يقبل سواه ، فإنّ هذا الدين الحقّ شأنُه شأنُ كلّ حقّ ، هو بحاجةٍ إلى القوّة الّتى تحميه ، وهذه القوّة تحتاج أيّما حاجةٍ إلى المال . ولهذا كانت عناية هذا القسم القريب من نهاية سورة البقرة الكريمة بالمال عنايةً بالغة ، وبالإرشاد إلى أوجه إنفاقه والتّعامل به ، وتقرير الثّواب الجزيل لمن أحسن التّعامل والانتفاع به .

وبالنظر إلى الآية الكريمة يتبيّن أنّها تشتمل على أحد أمثال القرآن الكريم البليغة المعجزة . والمعروف أنّ من أهم وظائف المثل تقريب المعنى البعيد ، وإظهارَ المتخيّل فى صورة المتحقّق ، وإخراجَ المعنوىّ فى شكل المادىّ ، وتقديم المفهوم فى هيئة المحسوس . وكى نتبيّن موطن الحذف فى الآية الكريمة ، أهو النّفقة فيكون التّقدير : مثل نفقة الّذين

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١١٣

(٢) تفسير القرطبىّ ١١١٣ .

(٣) تفسير القرطبىّ ١١١١

(٤) أمثال القرآن ص ٥٠ .

ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، أو هو الزّارع فيكون التّقدير : مثل الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل زارعٍ بذر فى الأرض حبّةً أنبتت سبع سنابل ، نودّ أن نسأل : ما الّذى تريد الآية الكريمة إظهاره وإبرازه أهو ثواب المنفق أو هو المنفق ؟ إنّ الّذى تريد الآية الكريمة إظهاره وإبرازه هو ثواب المنفق ولأجل هذا هى أظهرت ذلك الثّواب المعنوىّ فى صورة السّنابل السّبع الّتى فى كلّ سنبلةٍ منها مائة حبّة . لأجل هذا لا نجد ما يمنعنا من الذّهاب إلى كون المعنى يصحّ أن يكون على هذا النّحو : مثل نفقة الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله تعالى كمثل حبّة . ومن البيّن بلاغة حذف لفظة نفقة ، لأنّ جملة ينفقون منبّهةٌ عليها ومشيرةٌ إليها .

والآية الكريمة تقرّر أنّ صفة الّذين ينفقون أموالهم الّتى آتاهم الله تعالى إيّاها وجعلهم مستخلفين عليها ، فى سبيل الله تعالى وفى مختلِف أوجه البرّ والطّاعات ، وفى مقدّمتها الجهاد فى سبيل الله تعالى وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ صفة الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كصفة حبّةٍ من برٍّ أو شعيرٍ أو ذرةٍ وما إلى ذلك ممّا يصدق على واحدة لفظ حبّة ، أنبتت بإرادة الله تعالى سبع سنابل ، فى كلّ سنبلةٍ مائة حبّة . وبالتّالى تحوّلت الحبّة الواحدة بفضل الله تعالى ومنّه سبعمائة حبّة . وما دمنا بصدد الحديث عن الحبوب أو البذور والاستخلاص من الحبّة الواحدة أو البذرة الواحدة الكثير من الحبوب أو البذور فى إمكاننا أن نتعامل مع كلّ واحدةٍ من السبعمائة حبّة هذا النّوع من المعاملة فنحصل من الحبوب والبذور ما لا يعلم حقيقة عدده وما لا يحصيه إلاّ الله تعالى . وهذه النّظرة يؤيّدها فى الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ بمعنى أنّ السّبعمائة حبّة تمثّل بإرادة الله تعالى وفضله مرحلةً أوّليّةً من مراحل الثّواب ومراتبه .

وإنّ تحوّل الحبّة الواحدة نبتة وخروج السّبع السّنابل من هذه النّبتة ، — ويلاحظ أنّ الرّقم سبعة يراد به فى مرحلة الآحاد ، إضافةً إلى مدلوله ، تقرير كثرة العدد فى هذه المرحلة — إنّ تحوّل الحبّة نبتةً فسبعَ سنابل ، فاشتمالَ كلِّ سنبلة على مائة حبّة ، يعتبر عمليّةً ذهنيّةً

---

(١) سورة التّوبة ١١١ .

تخييليّة لطيفة ، وعمليّة واقعيّةً عمليّة فى الوقت ذاته وبالمقدار ذاته بدليل أنّ كلّ واحدٍ منّا يستطيع أن يلقى نظرةً متأمّلةً على سنابل القمح وغير القمح فى كلّ وقتٍ يريد . ويتمثّل الذّهن كلّ سنبلةٍ وقد خرج منها مائة حبّة ، ولا يملك الذّهن إلاّ أن يجمع حاصل السّنبلات السّبع من الحبوب أو أن يضرب حاصل كلّ سنبلةٍ فى عدد السّنابل وبالتّالى يكون النّاتج سبعمائة حبّة ، ويستطيع كلّ واحدٍ أن يحصل بسهولةٍ ويسرٍ على هذه النّتيجة السّارّة وليدة تلك العمليّة الذّهنيّة الممتعة . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ثواب المنفق ماله فى سبيل الله تعالى يصل إلى سبعمائة ضعف ، ولكنّ الآية الكريمة لا تذكر هذا الرّقم بصريح اللّفظ إنّما تقدّم لنا ذلك الشّريط التّصورىّ الّذى يقف بك عند مشارف النّتيجة والّذى يجعلك أنت النّاطق بها فعلاً فتقول إنّ الثّواب يصل إلى سبعمائة ضعف بينما هو فى الحقيقة النّاطق بالقوّة بذلك الرّقم .

وهذه الرّحلة الممتعة مع الشّريط التّصويرىّ الّذى يقف بك عند مشارف النّتيجة يقف بك قبل ذلك عند أهم معالم الرّحلة وأبرز محطّاتها ، بحيث إنّه يتيح لك فرصة ملء الفراغات الّتى وقف بك على مشارفها كما وقف بك على مشارف النّتيجة سواءً بسواء . إنّ المحطّة الأولى أو المشهد الأوّل هو منظر الحبّة . ودليلاً على صغر حجمها ، وربّما تنبيهًا على قلّة شأنها فى ذاتها لو لم تترتّب عليها نتائج غاية فى الأهمّيّة والخطورة ، جاءت اللّفظة منكّرة : « كمثل حبّة » والمراد أىّ حبّة وهنا يمتلئ القلب خشوعًا وإكبارًا لقدرة الله تعالى المبدعة الّتى أودعت فى كلّ حبّةٍ خلقت وشاءت لها أن تنبت هذه الخصائص العجيبة الّتى تجعلها أهلاً لأن تتحوّل نبتةً فسنابل فمئات الحبّات فآلاف الحبّات فملايين الحبّات إلى العدد الّذى لا يحصيه ولا يعدّه عدًّا إلاّ الله تعالى الّذى أحاط بكلّ شىءٍ علمًا والّذى لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وإنّ جملة أنبتت فى القول : ﴿ أنبتت سبع سنابل ﴾ تجعل الذّهن قادرًا على أن يتمثّل معنى مثل قوله تعالى عن أمّة محمّد ﷺ فى سورة الفتح[1] : ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم

(١) الآية ٢٩ .

الكفّار ﴾ فهذه الحبّة بإرادة الله تعالى مرّت بالمراحل الّتى اكتمل معها نموّ نبتتها وآتت بفضل الله تعالى ومنّه أُكُلها على أحسن وجهٍ وأكمله وأجمل شكلٍ وأحسنه . إنّ النّبتة من حيث الشّكل تسرّ النّفس وتبهج الخاطر فها هى ذى سنابلها قد استرسلت وغدت بمثابة الثّياب السّابغة الطّويلة الّتى تجرّها النّبتة وقد مالت لثقل الحبوب الّتى تشتمل عليها السّنابل ، وبدت وكأنّها الغادة الّتى ترفل فى ثياب زينتها ، والّتى تتبختر فى مشيتها ، والّتى تكاد تتعثّر فى ملابسها .

وممّا يصحّ أن يلفت النّظر أنّ هذه الحبّة أنبتت بإرادة الله تعالى سبع سنابل ، وهذا العدد فيما يقال أكبر عددٍ من السّنابل يمكن أن تنبته حبّة . ثمّ إنّ تلك السّنابل السّبع كلّها قد آتت بفضل الله تعالى أكلها ، وفى كلّ سنبلةٍ مائة حبّةٍ بالتّمام والكمال . إنّ هذه الأمور كلّها يصحّ تحقّقها بإرادة الله تعالى بشأن كلّ حبّة ، وإنّ الثّواب الجزيل الّذى يماثل ذلك العدد الوفير من الحبّات يصحّ تحقّقه هو الآخر بإذن الله تعالى . وممّا يلفت النّظر فى التعبير مجىء لفظ حبّة مرّتين اثنتين فى الآية الكريمة ، المرّة الأولى فى بداية الحديث عن صفة تلك الحبّة : « كمثل حبّة » والمرّة الآخرة فى نهاية الحديث تمييزًا للمائة « مائة حبّة » علمًا بأنّ هذه المائة الحبّة من نصيب السّنابل السّبع وكأنّ المعنى : وفى كلّ السّنابل السّبع سبعمائة حبّة . إنّ الحبّة الأولى واحدة والآخرة واحدة من بين سبعمائة حبّة .

والحقيقة أنّ ثمّة سؤالاً يفرض نفسه علينا وهو : وهل هذا النّبت البهيج والثّمر النّضيج من نصيب كلّ حبّة ؟ ويبنى على هذا السّؤال سؤالٌ آخر : وهل كلّ نفقةٍ يكون لصاحبها من الثّواب الجزيل ما حاولت السّنابل السّبع الّتى فى كلّ واحدةٍ منها مائة حبّةٍ تقريبه وتوضيحه ؟ إنّ الجواب بإيجازٍ : لا . ليس لكلّ حبّةٍ ولا لكلّ نفقة ذلك الحظّ الموفور من النّماء والثّواب . وهذا الجواب الموجز بحاجةٍ إلى شىءٍ من بسط القول بشأن كلٍّ من الحبّة والنّفقة . علمًا أنّ السّورة الكريمة بقصد التّنبيه إلى أنّ ذلك الثّواب الجزيل من نصيب نفقةٍ ذات مواصفاتٍ معيّنة ، وبقصد إرشاد المنفق إلى السّبيل القويم والصّراط المستقيم ، قد بيّنت فى العديد من الآيات الكريمات التّالية بعض الشّروط الّتى يجب توافرها من أجل الحصول على النّفقة فى سبيل الله تعالى . ويلاحظ أنّ هذه الآية الكريمة ذاتها قد بيّنت أهمّ

شرطٍ وهو أن تكون النّفقة فى سبيل الله تعالى وأريد بها وجهه الكريم .

وبشأن الجواب عن مواصفات الحبّة الّتى لها تلك النّبتة البهيجة والحبّات النّضيجة فى شىءٍ من بسط القول نودّ أن نسير مع الحبّة فى الملابسات الّتى تمرّ بها مع الإشارة إلى ما يقابل كلّ مرحلةٍ من المراحل فى حقّ النّفقة . وأوّل ما يتبادر إلى الذّهن بشأن الحبّة أن تكون صالحةً فى ذاتها وسليمةً وطيّبة . والمعروف أنّ من أهمّ ما يُعْنى به المزارع انتقاء البذور . أمّا الّذى يقابل هذه المرحلة من المال المنفق فهو أن يكون المال فى ذاته حلالاً طيّبًا سليمًا من كلّ عيب معافًى من كلّ داء لأنّ الله سبحانه وتعالى طيّبٌ ولا يقبل إلاّ طيّبًا(١) وإلاّ فما قيمة أن تكون النّفقة من مالٍ خبيثٍ مسروقٍ أو مغتصبٍ وما إلى ذلك . إنّ الحبّة غير السّليمة لا يصلح أن تتّخذ بذرة ، وإنّ المال غير الطّيّب لا يزكو عند الله تعالى .

فإذا كانت الحبّة سليمة اختار المزارع الماهر لها التّربة الصّالحة والبيئة الجيّدة لأنّ التّربة إذا لم تكن صالحة والبيئة لم تكن مناسبةً لا تنمو النّبتة ولا تثمر وقد قال عزّ من قائل(٢) : ﴿ والبلد الطّيّب يخرج نباته بإذن ربّه والّذى خَبُث لا يَخْرُج إلاّ نكدا . كذلك نصرّف الآيات لقومٍ يشكرون ﴾ وما الّذى يقابل فى حقّ النّفقة هذه المرحلة الّتى يشترط معها التّربة الجيّدة والبيئة المناسبة والظّروف المواتية ؟ يقابل ذلك وضع النّفقة فى موضعها ، وقد عرفنا أنّ المرادّ بالإنفاق فى سبيل الله تعالى كلّ أوجه البرّ ابتداءً بالإنفاق فى سبيل رفع راية لا إلٰه إلاّ الله محمّدٌ رسول الله . وهنا نصادف التّوجيه القرآنىّ الكريم فى مثل هذه الآية الكريمة من سورة التّوبة(٣) : ﴿ إنّما الصّدقات للفقراءِ والمساكينِ والعاملين عليها والمؤلّفةِ قلوبُهُمْ وفى الرّقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السّبيلِ فريضة من الله . والله عليمٌ حكيم ﴾ فكما أنّ الحبّة لا تنبت على الوجه المطلوب فى التّربة غير الصّالحة كذلك النّفقة لا تؤتى أكلها إذا وضعت فى غير موضعها .

وبشأن المقارنة بين الحبّة والمراحل الّتى تمرّ بها حتّى تؤتى أكلها وبين النّفقة يصحّ أن نقف بالمقارنة عند هذا الحدّ لأنّ الحبّة بعد أن تتاح لها الظّروف المواتية من صلاحٍ فى ذاتها وتربةٍ وبيئةٍ وماءٍ أو طلّ ، هى بحاجةٍ دائمًا وأبدًا إلى عناية الزّارع بها ، وليس كذلك النّفقة

---

(١) انظر مثلاً صحيح مسلم ٧ / ٩٨ (٢) سورة الأعراف ٥٨ (٣) الآية ٦٠ .

الّتى تنمو عند الله سبحانه وتعالى . وحتّى حينما تكون النّفقة فى هيئةٍ صدقةٍ قابلةٍ للنّماء فى ذاتها ويرعاها المنفق فإنّ كلّ عملٍ صالحٍ يقوم به المنفق تجاه تلك النّفقة بمثابة حبّةٍ جديدة قابلةٍ بعونٍ من الله تعالى وفضلٍ أن تؤتى أكلها فى هيئة السّنابل السّبع الّتى فى كلّ سنبلةٍ مائة حبّة بل وفى هيئة زيادة الثّواب عن هذا الحدّ ومضاعفته .

وإذا كانت المقارنة من جهة النّهاية تقف عند هذا الحدّ ، فإنّ المقارنة بين الحبّة والنّفقة من جهة البداية بعكس ذلك ، بحيث إنّ الزّيادة الّتى انفردت بها الحبّة فى النّهاية على النّحو الّذى تبيّنّا تقابلها زيادةٌ فى البداية . وتفسير ذلك أنّ الحبّة يكتفى بشأنها الصّلاح فى ذاتها على نحو صلاح النّفقة فى ذاتها ، ولا يُبْحَث عن شيءٍ قبل ذلك فى حقّ الحبّة أمّا النّفقة فلا . إنّ ما تنفرد به النّفقة عن الحبّة من حيث البداية قد نبّهت عليه الآية الكريمة فى هيئة الشّرط بأن تكون النّفقة فى سبيل الله تعالى وحده لا شريك له وليس فى سبيل أىّ شيءٍ آخر من رياءٍ وسمعةٍ وفخرٍ واختيالٍ على رءوس العباد وما إلى ذلك ممّا للشّيطان الرّجيم وللنّفس الأمّارة بالسّوء معه أو فى نصيب . قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ ما كان صالحًا متمشّيًا مع ما جاء به الشّرع الحكيم وخالصًا لوجهه الكريم . وإنّ النّفقة ، وهى بابٌ من أبواب العبادة إذا تحقّقت شروطها ، قد تبيّن من المقارنة بينها وبين الحبّة الصّالحة أن تكون بذرةً أو نواة ، تبيّن أنّها ينبغى أن تكون هى فى ذاتها طيّبة ، بمعنى أنّها اقتطعت من مالٍ طيّبٍ وليس من مالٍ خبيث . وكى يصحّ أن يقال عن النّفقة إنّها فى سبيل الله تعالى ينبغى أن يريد بها المنفق وجه ربّه الأعلى ، فيدفعها إلى مستحقّها سامحةً بها نفسه ، مبتهجًا بها قلبه ، مُنشرحًا لها صدره ، قريرةً بها عينه ، قبل أن تخرج من يده قد خرجت من قلبه الّذى يشعر صاحبه أنّه قد ازداد يقين قلبه بالإنفاق ثباتًا ، واطمئنان نفسه رجاء الثّواب من الله تعالى ، قوة ، وانشراح صدره ، ابتغاء مرضاة الله تعالى ، رسوخًا .

إنّ هذا الفريق من المنفقين أموالهم فى سبيل الله والّذين تتحقّق فيهم أمثال تلك الصّفات مظنّةٌ أن يشملهم قوله عزّ من قائل : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وهكذا يتبيّن أنّ المثل

المتعلّق بالزّرع قد حفّ به من بين يديه ومن خلفه ما يرفع من قيمة النّفقة فى سبيل الله تعالى . إنّ بين يدى ذكر الحبّة الّتى تلك صفاتها جاء النّصّ على كون النّفقة فى سبيل الله تعالى . وإن من خلف المثل المتعلّق بالحبّة وبالنّبتة جاءت هذه الزّيادة المتعلّقة بالنّفقة الّتى تلك صفاتها وحدها : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وكأنّ السّنابل السّبع الّتى فى كلّ سنبلةٍ مائة حبّةٍ لا تستطيع أن تجارى النّفقة فى سبيل الله تعالى الّتى باركها الله تعالى .

ومن البيّن أنّ جملة « ينفقون » واسعة الدّلالة إلى أبعد الدّرجات بحيث إنّا لا نكاد نتبيّن الجملة الأخرى الّتى تتقدّمها فى هذا المجال وربّما تجاريها . وكأنّ جملة ينفقون ذات العلاقة بالنّفقة تشمل كلّ ما ينفق فى سبيل الله تعالى بما فى ذلك النّفقة الواجب على المرء القيام بها تجاه من يعول ما دام يريد بها وجه الله تعالى . ألم يبيّن المصطفى ﷺ أنّ فى اللّقمة الّتى يضعها الزّوج فى فم زوجته إذا أراد بذلك وجه ربّه الأعلى صدقة[(١)] وأنّ فى بُضْع أحدنا صدقة ؟ بلى . « عن أبى ذرّ أنّ ناسًا من أصحاب النّبىّ ﷺ قالوا للنّبىّ ﷺ يا رسول الله : ذهب أهل الدُّثور[(٢)] بالأجور ، يُصَلُّون كما نُصَلّى ويصومون كما نصوم ويتصدّقون بفضول أموالهم . قال : أوَ ليس قد جعل الله لكم ما تَصَّدَّقون ؟ إنّ بكلّ تسبيحةٍ صدقةً وكلّ تكبيرةٍ صدقةً وكلّ تحميدةٍ صدقةً وكلّ تهليلةٍ صدقة وأمرٌ بالمعروف صدقة ونهىٌ عن منكرٍ صدقة وفى بُضْع[(٣)] أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله أيأتى أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر . قال : أرأيتم لو وضعها فى حرامٍ أكان عليه فيها وِزر فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »[(٤)] .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ والله واسعٌ عليم ﴾ وبالإضافة إلى ما يلفت الانتباه من

---

(١) انظر صحيح البخارى ٤ / ٣ .

(٢) الدّثور بضمّ الدّال جمع دَثْر بفتحها وهو المال الكثير .

(٣) هو بضمّ الباء ويطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصحّ إرادته هنا . وفى هذا دليل على أنّ المباحات تصير طاعاتٍ بالنّيّات الصّادقات . فالجماع يكون عبادةً إذا نوى به قضاء حقّ الزّوجة ومعاشرتها بالمعروف الّذى أمر الله تعالى به أو طلب ولدٍ صالح أو إعفاف نفسه أو إعفاف الزّوجة ومنعهما جميعًا من النّظر إلى حرامٍ أو الفكر فيه أو الهمّ به أو غير ذلك من المقاصد الصّالحة . الإمام النّووىّ .

(٤) صحيح مسلم ٧ / ٩١ بشرح النّووىّ .

مجيء لفظ الجلالة « والله » فى صد الجزئيّة الكريمة على غرار مجيئه فى صدر الجزئيّة الكريمة السّابقة : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وفى هذا الذّكر وفى هذا التّكرار من الفخامة ما فيه ، فإنّ هذا التّذييل يتضمّن التّنبيه إلى الصّفتين اللّتين تعتبران محورى الآية الكريمة . إنّ الصّفة واسع تنبّه إلى فضل الله تعالى الواسع فالحسنة بسبعمائة ضعفٍ إلى ما شاء الله تعالى من زيادة ، وإنّ الصّفة عليم قوّة للقول : ﴿ فى سبيل الله ﴾ وللقول : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وقد عرفنا أنّ هذين القولين يحفّان المثل المحسوس من بين يديه ومن خلفه . إنّ الله سبحانه وتعالى عليم ، هكذا فى صيغة المبالغة بمن أنفق ماله فى سبيله جلّ وعلا وحده لا شريك له ومن يستحقّ السّبعمائة ضعف ومن يستحقّ من الثّواب أكثر من ذلك . إنّه جلّ وعلا لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ولا يسأل عزّ وجلّ عمّا يفعل سبحانه وتعالى عمّا يصفون .

والآية الكريمة التّالية تبيّن بعض صفات المنفقين الّذين يستحقّون ذلك الفضل من الله تعالى .

الآيـة رقـم (٢٦٢)

قال تعالى : ﴿ الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سبب النّزول :

قيل إنّها نزلت فى عثمان بن عفّان رضى الله عنه . قال عبد الرّحمن بن سَمُرة جاء عثمان بألف دينارٍ فى جيش العسرة فصبّها فى حِجْر رسول الله ﷺ فرأيته يدخل يده فيها ويقلّبها ويقول : ما ضَرَّ ابنَ عفّان ما عمل بعد اليوم . اللّهمّ لا تنس هذا اليوم لعثمان . وقال أبو سعيدٍ الخدرىّ : رأيت النّبىّ ﷺ رافعًا يديه يدعو لعثمان يقول : يا ربَّ عثمان إنّى رضيت عن عثمان فارض عنه . فما زال يدعو حتّى طلع الفجر فنزلت : الّذين ينفقون

أموالهم فى سبيل الله ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى . الآية[١] .

ثمّ لا يتبعون : معنى ثمّ إظهار التّفاوت بين الإنفاق وترك المنّ والأذى وأنّ تركهما خيرٌ من نفس الإنفاق ، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرًا من الدّخول فيه بقوله : ثمّ استقاموا[٢] .

منّا : المنّ ذكر النّعمة على معنى التّعديد لها والتّقريع بها ، مثل أن يقول : قد أحسنت إليك ونَعَشْتُك وشِبْهَه . وقال بعضهم : المنّ التّحدّث بما أَعْطَى حتّى يبلغ ذلك المُعْطَى فيؤذيه[٣] وذكر المنّة للمنعم عليه على سبيل الفخر عليه بذلك والاعتداد عليه بإحسانه[٤] وأصل المنّ القطع لأنّ المنعم يقطع قطعةً من ماله لمن ينعم عليه . والمنّ والمنّة النّعمة : منّ عليه أنعم . ومن أسمائه تعالى المنّان . والمنّ النّقص من الحقّ والبخس له ، ومنه المنّ المذموم[٥] والمنّ من الكبائر . ثبت فى صحيح مسلم وغيره وأنّه أحد الثّلاثة الّذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذابٌ أليم[٦] وفى النّسائىّ : ثلاثةٌ لا يدخلون الجنّة ، العاقّ لوالديه ومدمن الخمر والمنانّ بما أعطى[٧] وكانوا يقولون إذا صنعتم صنيعةً فانسُوها . ولبعضهم :

وإن امــــرءًا أسدى إلىّ صنيعــــةً وذكّـــــرنيها مـــــرّةً للـــــئيم

وفى نوابغ الكلم : صنوان من منع سائله ومنّ . ومن منع نائله وضنّ .

وفيها : طعم الآلاء أحلى من المنّ[٨] ونصّ على المنّ وقدّم لكثرة وقوعه من المتصدّق[٩] وثمّ محذوف أى منًّا على المنفق عليه ولا أذًى له[١٠] .

ولا أذًى : الأذى المكروه الّذى يحبطون به ما سلف من الإحسان[١١] والسَّبّ

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١١٤ وانظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٦ .
(٢) الكشّاف ١ / ٢٩٨
(٣) تفسير القرطبىّ ١١١٦ .
(٤) البحر المحيط ٢ / ٣٠٢
(٥) انظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٢ .
(٦) تفسير القرطبىّ ١١١٦ والبحر المحيط ٢ / ٣٠٦ وتفسير ابن كثير ١ / ٣١٨ .
(٧) البحر المحيط ٢ / ٣٠٦
(٨) الكشّاف ١ / ٢٩٧ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٣٠٦
(١٠) البحر المحيط ٢ / ٣٠٧ .
(١١) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٨ .

والتّشكّى . وهو أعمّ من المنّ ، لأنّ المنّ جزءٌ من الأذى لكنّه نصّ عليه لكثرة وقوعه(١) وذِكْرُ ذلك إلى من لا يحبّ وقوفه عليه ونحوه(٢) والتّطاول عليه بسبب ما أسدى إليه(٣) .

قال الماوردىّ : وإذا كان العطاء على هذا الوجه خاليًا من طلب جزاءٍ وشكرٍ وعُرْيًا عن امتنان ونشر كان ذلك أشرف للباذل وأهنأ للقابل . فأمّا المعطى إذا التمس بعطائه الجزاء ، وطلب به الشّكر والثّناء ، كان صاحب سمعةٍ ورياء ، وفى هذين من الذّمّ ما ينافى السّخاء . وإن طلب الجزاء كان تاجرًا مُرْبحًا لا يستحقّ حمدًا ولا مدحًا . وقد قال ابن عبّاس فى قوله تعالى : ولا تمنن تستكثر ، أى لا تعط عطيّةً تلتمس بها أفضل منها(٤) .

لهم أجرهم عند ربّهم : الأجر : الجنّة(٥) وثواب إنفاقهم(٦) فإن قلت : أىّ فرقٍ بين قوله : لهم أجرهم ، وقوله فيما بعد : فلهم أجرهم ، قلت : الموصول لم يضمّن هٰهنا معنى الشّرط وضمّنه ثمّة . والفرق بينهما من جهة المعنى أنّ الفاء فيهما دلالةٌ على أنّ الإنفاق به استحقّ الأجر ، وطرحها عارٍ عن تلك الدّلالة(٧) .

ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون : لا خوفٌ عليهم عند مقدمهم على الله وفراقهم الدّنيا ولا فى أهوال القيامة وأن ينالهم من مكارهها أو يصيبهم فيها من عقاب الله ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم فى الدّنيا(٨) من الأولاد ولا يأسفون على ما فاتهم من الحياة الدّنيا وزهرتها لأنّهم قد صاروا إلى ما هو خيرٌ من ذلك(٩) فنفى الخوف لما يستقبل ونفى الحزن على ما سلف من دنياه(١٠) .

المناسبة :

لمّا تقدّم فى الآية الّتى قبل ذكر الإنفاق فى سبيل الله على العموم ، بيّن فى هذه الآية أنّ ذلك الحكم والثّواب إنّما هو لمن لا يتبع إنفاقه منًّا ولا أذى ، لأنّ المنّ والأذى مبطلان

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١١٦ (٢) الجلالين .
(٣) انظر الكشّاف ١ / ٢٩٨ .
(٤) تفسير القرطبىّ ١١١٦ وانظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٦ .
(٥) تفسير القرطبىّ ١١١٦ (٦) الجلالين .
(٧) الكشّاف ١ / ٢٩٨ (٨) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٣ .
(٩) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٨ (١٠) تفسير القرطبىّ ١١١٧ .

لثواب الصّدقة كما أخبر تعالى فى الآية بعد هذا وإنّما على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوابه بإنفاقه على المنفَق عليه ولا يرجو منه شيئًا ولا ينظر من أحواله فى حالٍ سوى أن يراعى استحقاقه . قال الله تعالى : لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا(١) .

بيّنت هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام(٢) : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ أنّ الحسنة بعشر أمثالها . وبيّنت الآية الكريمة السّابقة من سورة البقرة أنّ ثواب الإنفاق فى سبيل الله تعالى يصل إلى سبعمائة ضعف وإلى ما يزيد على ذلك بمشيئة الله تعالى . وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن بعض الصّفات المهمّة الملابسة للإنفاق فى سبيل الله تعالى . والّذى يلفت الانتباه حقًّا للوهلة الأولى أنّ الآية الكريمة لا تكتفى بالقول : ﴿ الّذين ينفقون أموالهم ﴾ مع العلم بأنّ الآية الكريمة متمّمة للآية الكريمة السّابقة مبنيّة عليها ، إنّما تكرّر أهمّ صفةٍ ينبغى توافرها فى النّفقة من المال الطّيّب وهى أن تكون فى سبيل الله تعالى أوّلاً وأخيرًا . قال تعالى : ﴿ الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴾ إنّ فى تكرار القول ﴿ فى سبيل الله ﴾ تنبيهًا إلى أنّ النّفقة إذا لم تكن فى سبيل الله تعالى لا يشفع فى قبولها عند الله تعالى عَدَمُ اقترانها بالمنّ والأذى . إنّ الشّرط الأوّل الّذى لا محيد عنه فى إنفاق المال الطّيّب أن يراد به وجه الله تعالى وحده لا شريك له .

فإذا تحوّلنا إلى القول بعد ذلك : ﴿ ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى ﴾ استذكرنا اجتهاد الزّمخشرىّ الموفّق حينما تبيّن أنّ معنى ثمّ هنا إظهار التّفاوت بين الإنفاق وبين ترك المنّ والأذى وأنّ ترك المنّ والأذى خيرٌ من الإنفاق ذاته . ومن البيّن أنّ هذا الرّأى يأخذ بسببٍ من الآية الكريمة التّالية : ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذًى ، والله غنىٌّ حليم ﴾ .

والآية الكريمة تقدّم فى الذّكر المنّ على الأذى ، لأنّه بالمقارنة بين احتمال حدوث المنّ وحدوث الأذى يتبيّن أنّ احتمال حدوث المنّ هو الأكثر . ويصحّ أن نفهم من مَنّ المنفق على من أنفق عليه ، أنّ المانّ بإعلانه ما أمره الشّارع الحكيم بإخفائه بحيث لا تعلم اليد اليسرى ما تصدّقت به اليد اليمنى ، وبقول المانّ لمن أعطاه من مال الله تعالى الّذى آتاه الله

(١) تفسير القرطبىّ ١١١٥   (٢) الآية ١٦٠ .

تعالى إيّاه وجعله مستخلفًا فيه ، أو بقول المانّ ما يصل إلى أذن من أعطاه ويؤلمه : لقد أعطيت فلانًا كذا وكذا وأحسنت إليه وما إلى ذلك من أقوالٍ تندفع من ذات المعطِى بباعث الاعتداد بالإحسان على المعطَى والفخر عليه ، يصحّ أن نفهم من منّ المنفق أنّه إنّما أراد بإنفاقه الرّياء والسّمعة ، الذّكر الحسن وحسن الأحدوثة ، وهو بمنّه على من أعطاه يعبّر عمّا كان يريد ممّن أعطاه ما يقابل عطاءه من ذكرٍ حسنٍ وثناءٍ جميل . ومن الجائز أن يكون المنفق عليه قد وفىّ المنفق حقّه ، مع الله تعالى إن لم يكن مع عباد الله تعالى ، ولكنّ المنفق المانّ لم يرد بنفقته وجه الله تعالى إنّما أراد الذّكر الحسن بين عباد الله تعالى ، وإنّ جشعه فى هذا المجال يحمله على أن يكمل ما يظنّه نقصًا ممّن أنفق عليه بالثّناء على نفسه فى هيئة المنّ . إنّ المنّ منهيٌّ عنه وهو ما حقّ لثواب الإنفاق فى سبيل الله تعالى ، فكيف إذا كان الإنفاق أساسًا ليس فى سبيل الله تعالى .

فإذا تحوّلنا إلى الأذى الّذى هو منهيٌّ عنه كالمنّ ، والّذى يقلّ حدوثه بالقياس إلى المنّ نستطيع أن نتبيّن أنّه يتجاوز فى القبح درجة المنّ ، لأنّ الأذى كما يكون أذىً مباشرًا وبدون منّ يكون أذىً مقرونًا بمنٍّ أو مسبوقًا بمنّ . لنتخيّل شخصًا منّ الله سبحانه وتعالى عليه بنعمة المال وهو ينفق من هذا المال بقصد اتّخاذ هذا الإنفاق وسيلةً لمصلحةٍ ذاتيّة تعود إليه عن طريق هذا المنفق عليه . إنّ الملاحظ للوهلة الأولى أنّ هذا المنفق ينفق من ماله بقصد استكثار العائد بواسطة المنفق عليه ولا يريد بإنفاقه وجه ربّه إنّما يريد الجزاء . إنّ هذا المنفق الحريص على الجزاء حينما يسبق إلى رُوعه أنّ ذلك المنفَق عليه ما وفّاه حقّه من حسن الجزاء الحريص عليه ، هو من باب الرّغبة فى إكمال نقص ذاته وبباعث الانتصار لنفسه والانتقام ممّن حسبه قد خذله ، يتجاوز فى تعريضه بالقول مرحلة المنّ إلى مرحلة الإيذاء كأن يذيع بين أناسٍ لا يريد المنفق عليه أن يعلموا من حاله السّيىء أىّ شىء ، كأن يذيع نبأ إنفاقه فى معرض الفخر على المحتاج والاعتداد على المنفق عليه ، وإيذائه بإفشاء أسرار أحواله ، وإظهاره بالمظهر غير اللاّئق ليس من النّاحية المادّيّة بل ومن النّاحية المعنوية من زاوية عدم الوفاء وإنكار المعروف ، بل وربّما من زاوية مبادلة الإحسان بالإساءة والمعروف بالمنكر !. أمّا إذا تجاوز الإيذاء مرحلة سيّىء القول إلى مرحلة سيّىء الفعل

فذلك الدّرك الّذى ليس تحته درك .

إنّ على المنفق ماله فى سبيل الله تعالى أن يريد بإنفاقه وجه ربّه الأعلى وحده لا شريك له ، وألاّ يريد من إنفاقه الشّكر والثّناء الحسن ، وأنّ المؤذى يريد من إنفاقه الجزاء المعنوىّ أو المادّىّ . وكأنّ هذه الآية الّتى يعلّم الله سبحانه وتعالى عباده المنفقين أن يقولوها(١) : ﴿ إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا ﴾ تنفى الباعث على الأذى وهو الجزاء وعلى المنّ وهو الشّكر . وكأنّ المعنى إنّما نطعمكم ممّا آتانا الله تعالى إيّاه ابتغاء وجه الله تعالى وحده لا شريك له فنحن لا نريد منكم جزاءً ، بل إنّا لا نريد منكم ما يقلّ عن الجزاء وهو الشّكر .

إنّ هؤلاء الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله تعالى ، كما جاء فى آية سورة البقرة ، والّذين لا يريدون بما أنفقوا فى سبيل الله تعالى جزاءً من عباد الله تعالى ولا شكورًا ، كما جاء فى آية سورة الإنسان ، لهم أجرهم عند ربّهم ، ذلك الأجر الّذى بيّنته الآية الكريمة السّابقة الّتى نصّت على السّبعمائة الضّعف وعلى الزّيادة على ذلك لمن يشاء الله تعالى ، وفوق ذلك هم لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون من يوم القيامة ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود الّذى يؤتى فيه كلّ إنسانٍ كتاب أعماله الّذى لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها من حسنةٍ يثاب عليها أو سيّئةٍ يعاقب عليها . وإذا كانت الآية الكريمة قد نفت الخوف عن أولئك المنفقين فيما يستقبلون من يوم القيامة وملابساته ، فإنّها قد نفت عنهم الحزن حينما يلبّون داعى ربّهم ، ويغادرون الأولى إلى الآخرة الّتى هى خيرٌ للمؤمنين المتّقين من الأولى . إنّهم لا يحزنون على ما تركوا وراءهم من زهرة الحياة الدّنيا ومن أهلٍ وولدٍ ومالٍ وخلاّن ، لأنّ الآخرة بفضل الله تعالى فى حقّهم خيرٌ من الأولى .

والحقيقة أنّ إكبارنا لجملة « ينفقون » وإعجابنا بها لا يمكن أن ينتهيا أو يقفا عند حدّ ، لأنّ معناها عامٌّ وشاملٌ ويكاد يغطّى كلّ صور الإنفاق ومن بين هذه الأوجه الصّدقة . إنّ المتصدّق عليه مثلاً تشمله جملة « ينفقون » فهو واحدٌ من الّذين ينبغى الإنفاق عليهم وهو واحدٌ من ذوى المنفق وأهله والّذين يعولهم . وإنّ هذه المعانى الكريمة النّبيلة الّتى

---

(١) سورة الإنسان ٩ .

توحى بها جملة « ينفقون » مهيّئةً للنّهى عن المنّ وعن الأذى فى أسلوب الآية الكريمة المعجز الّذى قام فيه النّفى بدور النّهى خير قيامٍ وأبلغه . إنّ كلاً من المنّ والأذى لا مكان لأىٍّ منهما عند المسلم لله ربّ العالمين الذى ينفق ممّا رزقه الله تعالى ابتغاء وجه ربّه الأعلى جلّ وعلا وحده لا شريك له . نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا . آمين .

الآيــة رقــم (٢٦٣)

قال تعالى : ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً ، والله غنىٌّ حليم ﴾ .

قولٌ معروف : كلامٌ حسن وردٌّ على السّائل جميل[١] « والدّعاء والتّأنيس والتّرجية بما عند الله خيرٌ من صدقةٍ هى فى ظاهرها صدقةٌ وفى باطنها لا شىء ، لأنّ ذكر القول المعروف فيه أجرٌ وهذه لا أجر فيها . قال ﷺ : الكلمة الطّيّبة صدقة ، وإنّ من المعروف أن تَلْقى أخاك بوجْه طَلْق[٢] أخرجه مسلم[٣] فيتلقّى السّائل بالبشر والتّرحيب ، ويقابله بالطّلاقة والتّقريب ، ليكون مشكورًا إن أعطى ومعذورًا إن منع . وقد قال بعض الحكماء : الق صاحب الحاجة بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره ..... وروى من حديث عمر رضى الله عنه قال قال النّبىّ ﷺ : إذا سأل السّائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتّى يفرغ منها ثمّ ردّوا عليه بوقارٍ ولينٍ أو ببذلٍ يسير أو ردٍّ جميل ، فقد يأتيكم من ليس بإنسٍ ولا جان ينظرون صنيعكم فيما خوّلكم الله تعالى . قلت : دليله حديث أبرص وأقرع وأعمى . خرّجه مسلم وغيره ، وذلك أنّ مَلَكًا تصوّر فى صورة أَبْرَصَ مرّةً وأَقْرَعَ أخرى وأعمى أخرى امتحانًا للمسئول »[٤] .

ومغفرة : تجاوزٌ عن السّائل إذا ألحّ وأغلظ وجفا[٥] ووُجِد منه ما يثقل على المسئول[٦] .

---

(١) الجلالين .

(٢) يقال : رَجُلٌ طَلْق الوجه وطِلْقه وطُلُقه وطَلِقه وطَلِيقه : ضاحكه .

(٣) انظر صحيح مسلم ٧ / ٩٥

(٤) تفسير القرطبىّ ١١١٧ .

(٥) تفسير القرطبىّ ١١١٨

(٦) الكشّاف ١ / ٢٩٨ .

يتبعها أذى : يعنى يشتكيه عليها ويؤذيه بسببها(١)، ولم يحتج إلى ذكر المنّ فى قوله « يتبعها » لأنّ الأذى يشمل المنّ وغيره(٢) .

والله غنىٌّ حليم : والله غنىٌّ عمّا يتصدّقون به حليمٌ حين لا يعجّل بالعقوبة على من يمنّ بصدقته منكم ويؤذى فيها من يتصدّق بها عليه(٣) وعن ابن عبّاس : الغنىّ الّذى كمل فى غناه ، والحليم الّذى قد كمل فى حلمه(٤) .

بيّنت الآية الكريمة قبل السّابقة الثّواب الجزيل الّذى سيناله بإذن الله تعالى من ينفق ماله فى سبيل الله تعالى ، وبيّنت الآية الكريمة بعدها أنّ ذلك الثّواب من نصيب من ينفق ماله فى سبيل الله تعالى ثمّ لا يُتْبِعُ ما أنفق منًّا ولا أذًى . وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن بُعْدًا جديدًا من أبعاد المسألة ، فهى تقرّر أنّ قول المعروف للسّائل ومغفرة ذنبه إذا ألحّ فى سؤاله وألحف خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً لهذا السّائل .

والحقيقة أنّا نودّ أن نقف عند كلّ فِقرةٍ على حدة . فمع الفِقْرة الأولى : « قولٌ معروف » ومن البيّن أنّ لفظ « قول » مبتدأ ، وجاز الابتداء به وهو نكرة لاختصاصه بالصفة « معروف » ونستطيع أن نفهم أنّ هذا القول المعروف للسّائل من ردّه ردًّا جميلاً ، واعتذارٍ إليه ، ودعاءٍ له بقضاء الحاجة وتحقيق المطلوب وما إلى ذلك ، إنّما يتجلّى كلّ ذلك فى العادة حينما لا يكون إلحافٌ من السّائل ولا إلحاح بل السّؤال الهيّن والطّلب اللّين . ويظلّ لفظ « معروف » القادر على جلب كلّ معروفٍ من القول شرعًا وعقلاً ، قادرًا على طرد ما يقابله من منكر القول وسيّئه .

فإذا تحوّلنا إلى القول : « ومغفرة » استطعنا أن نفهم من ذكر هذا اللّفظ أنّ ثمّة ذنبًا أو ما يشبه الذّنب يرتكبه السّائل . ونستطيع أن نفهم أنّ ما يشبه الذّنب الّذى ارتكبه السّائل هو أنّه ألحّ فى السّؤال وألحف . إنّ الفرق بين هذا السّائل وبين السّائل الأوّل أنّ الأوّل سأل ، وربّما على استحياء ، ولكن دون أن يلحّ ويلحف ، أمّا الآخر فإنّه ألحّ وألحف ربّما بدرجةٍ تزعج المسئول وتغضبه . إنّ كتاب الله تعالى العزيز معدن الحكمة

(١) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٣

(٢) البحر المحيط ٢ / ٣٠٨ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٣

(٤) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٣ .

ومنبع الآداب ، يرشد المسئول فى حال عدم إعطاء السّائل شيئًا ، لسببٍ من الأسباب ، وفى حال إزعاج السّائل له بالإلحاف فى المسألة بأنّ المغفرة منه مطلوبة . وكى نتبيّن أبعاد معنى المغفرة هنا نودّ أن نستأنس ببعض ما قال العلماء بشأن الجمع بين العفو والمغفرة فى قوله تعالى فى الآية الأخيرة من سورة البقرة : ﴿ واعف عنّا واغفر لنا ﴾ إنّ ما قاله العلماء فى هذا الشّأن يستفاد منه أنّ العفو يقف عند إزالة الذّنب وترك العقوبة ، وأنّ الغفران يتجاوز ذلك إلى ستر الذّنب صونًا للمذنب من عذاب التّخجيل والتّشهير . بل إنّ الرّاغب الأصفهانىّ تجاوز بشأن الغفران مرحلة ستر الذّنب إلى مرحلة إظهار الإحسان بدله[1] ويصحّ هذا المعنى الّذى ذهب إليه الرّاغب بشأن قوله تعالى : ﴿ واعف عنّا واغفر لنا ﴾ ويصحّ الوقوف عند ستر الذّنب فى حقّ السّائل الملحف فى السّؤال لأنّ قدرة المسئول تقف عند حدّ سَتْرما أتى السّائل الّذى ألحّ وأغلظ وجفا .

وهكذا يتبيّن أنّ القول : ﴿ قولٌ معروف ﴾ يتمشّى مع سؤال السّائل بالمعروف وحالة المسئول النفسيّة الهادئة ، وأنّ القول : ﴿ ومغفرة ﴾ يتمشّى مع سؤال السّائل بإلحاحٍ وإلحاف وحالة المسئول النّفسيّة المستفزّة . إنّ القول بالمعروف والمغفرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذًى . ونستطيع أن نفهم أنّ الأذى المنهىّ عنه إثر الصّدقة هو الّذى يصحّ توقّعه فى حال إلحاح السّائل وإلحافه واضطرار المسئول إعطاءه شيئًا رغبةً فى التّخلّص من إلحاحه وإلحافه فى المسألة . وحينما يُنْفَى وجود الأذى فى حال الإلحاح من السّائل ، فمن باب الأَوْلى أن يُنْفَى المنّ على السّائل لدخول المنّ فى الأذى باعتباره أقلّ منه . إنّ فى نفى الأكبر نفيًا ضمنيًّا للكبير ، ولهذا اكتفت الآية الكريمة بذكر الأذى وسكتت عن المنّ .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ والله غنىٌّ حليم ﴾ وإنّ لفظ غنىّ يريد أن يقول للّذين آتاهم الله تعالى من فضله إنّ ما بأيديكم من مال هو من فضل الله تعالى عليكم فأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه واعلموا أنّ الله تعالى الّذى آتاكم قادرٌ على إيتاء من سألكم ما يغنيه عن سؤالكم ، بل وما يغريكم بمد يد الاستعانة به ولكنّ الله تعالى ابتلاكم بالغنى كى تقوموا

(١) انظر هنا معجم مقاييس اللّغة « العفو » ٤ / ٥٦ و « غفر » ٤ / ٤٨٥ وتفسير القرطبىّ ١٢٤١ والبحر المحيط ٢ / ٣٧٠ .

بما يجب عليكم من شكرٍ لله تعالى بالإنفاق فى سبيله والصّبر عن المعاصى ، وابتلاه بالفقر كى يعلم الله تعالى علم ظهورٍ أيصبر أم يجزع أيؤمن أم يكفر . وإنّ لفظ حليم يريد أن يقول لمن لم يمتثل أمر الله تعالى فأتبع صدقته بالمنّ والأذى ، أو قال للسّائل هُجْرًا من القول ونُكْرًا وهتك ستره على رءوس الأشهاد : إنّ الله سبحانه وتعالى ، لم يعاجلك بالعقوبة حلمًا منه ، فعليك أن تفهم عدم المعاجلة بالعقوبة على حقيقته بأنّه إمهالٌ من الله تعالى لك على أمل أن تعود إلى جادّة الصّواب ، وحذار أن يسبق إلى رُوعك أنّ الإمهال إهمال وإلاّ أَخذَك العزيز الجبّار المتكبّر أخذ عزيزٍ مقتدر فكنت عبرةً لكلّ معتبر . ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾(١) .

على أنّ الّذى يلفت النّظر أخيرًا فى الآية الكريمة هو أنّها نصّت على الصّدقة بصفةٍ خاصّة ، وهى بذلك تستلّها من بين كلّ صنوف الإنفاق فى سبيل الله تعالى الّتى نصّت عليها الآيتان الكريمتان السّابقتان . ويلاحظ بشأن الصّدقة وإيتائها أنّها مظنّة التقاء سائل الصّدقة والمتصدّق ، ولعلّ هذه المظنّة احتمال كونها السّبب فى نصّ الآية الكريمة على الأذى دون المنّ ، رغم دخول المنّ فى الأذى ، لأنّ هذا الالتقاء مظنّة إثارة المسئول فى حال إلحاف السّائل لدرجة حصول الأذى من المسئول مباشرةً إلى السّائل ، وقد لا يكون ثمّة مكانٌ فى هذه الحال للمنّ لحصول الأذى الّذى هو أسوأ منه حالاً . ولا ينفى ذلك أن يكتفى المسئول بالمنّ ، وقد عرفنا أنّه جزءٌ من الأذى الّذى نصّت عليه الآية الكريمة . وإنّ حديث الآية الكريمة عن الصّدقة موطّىء لحديث الآية الكريمة التّالية عنها .

---

(١) سورة الحشر ٢ .

الآيـة رقـم (٢٦٤)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تُبْطِلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالّذى يُنْفِق ماله رِئاءَ النّاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صَلدًا لا يَقْدِرون على شيءٍ ممّا كسبوا . والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

يا أيّها الّذين آمنوا : صدّقوا الله ورسوله(١) .

لا تبطلوا : الباطل نقيض الحقّ وهو ما لا ثبات له عند الفحص . والإبطال يقال فى إفسادّ الشّىء وإزالته(٢) عبّر تعالى عن عدم القبول وحرمان الثّواب بالإبطال(٣) .

صدقاتكم : أجور صدقاتكم(٤) .

بالمنّ والأذى : خصّ الصّدقة بالنّهى إذ كان المنّ فيها أعظم وأشنع والظّاهر أنّ قوله بالمنّ معناه على الفقير وهو قول الجمهور(٥) والمراد الصّدقة الّتى يَمُنُّ بها ويؤذِى لا غيرها . والعقيدة أنّ السّيّئات لا تُبْطل الحسنات ولا تُحْبِطها ، فالمنّ والأذى فى صدقةٍ لا يُبْطِل صدقةً غيرها .

قال جمهور العلماء فى هذه الآية : إنّ الصّدقة الّتى يعلم الله من صاحبها أنّه يمنّ أو يؤذى بها فإنّها لا تُقْبل . وقيل : بل جعل الله للملك عليها أمارة فهو لا يكتبها وهذا حسن . والعرب تقول لما يُمَنّ به : يدٌ سوداء . ولما يُعْطَى عن غير مسألة : يدٌ بيضاء . ولما يُعْطَى عن مسألة : يدٌ خضراء(٦) وروى عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : إيّاكم والامتنان بالمعروف فإنّه يُبْطِل الشّكر ويمحق الأجر ثمّ تلا : لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى(٧) .

كالّذى : الكاف قيل فى موضع نعت لمصدرٍ محذوفٍ تقديره إبطالاً كإبطال صدقة

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٣

(٢) مفردات الرّاغب ص ٥١ .

(٣) تفسير القرطبىّ ١١١٩

(٤) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٣ .

(٥) البحر المحيط ٢ / ٣٠٨

(٦) تفسير القرطبىّ ١١١٩ .

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٢٠ .

الّذى ينفق(١) .

رئاء : الرّئاء فعال مصدر من راء من الرّؤية . ويجوز إبدال همزته ياءً لكسرة ما قبلها ، وهو أن يرى النّاس ما يفعله من البرّ حتّى يثنوا عليه ويعظّموه بذلك لانيّة له غير ذلك(٢) رئاء النّاس : مراآته إياهم بعمله(٣) وانتصاب رئاء على أنّه مفعولٌ من أجله أو مصدر فى موضع الحال(٤) مرائيًا لهم(٥) .

ولا يؤمن بالله واليوم الآخر : ولا يصدّق بوحدانيّة الله وربوبيّته ولا بأنّه مبعوثٌ بعد مماته فمجازًى على عمله فيجعل عمله لوجه الله وطلب ثوابه وما عنده فى معاده وهذه صفة المنافق(٦) .

فمثله : الهاء عائدةٌ على الّذى(٧) .

كمثل صفوان : الصّفوان : الحجر الكبير الأملس(٨) والصّفوان واحدٌ وجمع . فمن جعله جمعًا فالواحدة صفوانة بمنزلة تمرة وتمر ونخلة ونخل . ومن جعله واحدًا جمعه صفوان وصُفِيّ وصِفِيّ كما قال الشّاعر :

مواقــــع الـــطّير على الصّفــــىّ(٩)

ويرى الأخفش(١٠) أنّ الصّفوان جمعٌ واحده صفوانة « ومنهم من يجعل الصّفوان واحدًا ، فيجعله الحَجَر ، ومن جعله جميعًا جعله الحجارة ، مثل التّمرةِ والتّمر(١١) قال النّحّاس : صفْوان وصفَوان يجوز أن يكون جمعًا ويجوز أن يكون واحدًا ، إلاّ أن الأَوْلى به أن يكون واحدًا لقوله عزّ وجلّ : عليه ترابٌ فأصابه وابل . وإن كان يجوز تذكير الجمع إلاّ أنّ الشّىء لا يخرج عن بابه إلاّ بدليلٍ قاطع(١٢) وقيل هو اسم جنسٍ واحـده

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٠٨ وتفسير القرطبىّ ١١٢٠ والجلالين .
(٢) البحر المحيط ٢ / ٣٠٢ (٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٤ .
(٤) البحر المحيط ٢ / ٣٠٩ (٥) الجلالين .
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٤ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٤ والبحر المحيط ٢ / ٣٠٩ .
(٨) تفسير القرطبىّ ١١٢٠ (٩) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤٤ وانظر ٤٦ .
(١٠) معانى القرآن ١ / ١٨٤ .
(١١) معانى القرآن للأخفش ١ / ١٨٤ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٣١٨ .
(١٢) تفسير القرطبىّ ١١٢١ .